

الإنهيار التام

للكاتب الإيطالى الكبير

كورزيوما لابارتة

ترجمة : فريد كامل



الهيئة المصرية العامة للكتاب

ادب الحرب

الانهيار التام

للكاتب الايطالى الكبير

كورزيو مالابارته

ترجمة

فريد كامل



١٩٩٥



رئيس مجلس الإدارة :

ا . د سمير سرحان

رئيس التحرير :

جمال الغيطانى

مدير التحرير

سعيد عبد الفتاح

الغلاف

والتصميم الجرافيكى

للفنان : محمود الهندى

الاخراج الفنى والغلاف : أميمة على أحمد

الانهيار التام

فريد كامل

((انهم يكرهون كلماتى لأنها لا تصف الانهيار التام الكامل الذى أصاب أوربا فحسب ، بل الذى أصاب النفس البشرية نفسها والقيم الانسانية فى العالم كله)) .

مالابارتـه

مقدمة

فى الوقت الذى تهدد فيه العالم حرب عالمية جديدة ـ ذرية هذه المرة ـ اكثر من أى وقت آخر نتيجة لتعود الناس على المغامرات الحربية واشباعهم بصورة مثالية متأنقة للحياة العسكرية التى تصورها السينما الأمريكية كمضغ لبان ومرح وانطلاق وجودى وغزو لبنات المستعمرات ـ فى هذا الوقت الذى ينمو فيه جيل جديد من الشباب اللامبالى المتهور الذى لم يشهد ويلات الحرب الحقيقية ولم يعشها .. فى هذا الوقت تبدأ دور النشر الاشتراكية فى أوربا فى نشر كتابات الكاتب الايطالى كورزيو مالابارته (١٨٩٨ ـ ١٩٥٧) من جديد لتذكر الأوربيين حقيقة الحرب وبشاعتها .

ولد كورزيو مالابارته لأب المـانى بروستنطى شديد الغطرسة والبرود وأم بولندية كاثوليكية شديدة الحساسية والعاطفيـة فكانت له شخصية متقلبة معقدة مليئة بالمتناقضات ـ مثل أوربا نفسها فى تلك الفترة .

انشـأ مجـلة فى سن الخامسـة عشرة وتطوع للحـرب فى السادسة عشرة وانضم للحزب الفاشستى الايطالى وصار رئيسا لتحرير جريـدة « لاستامبا » ـ جريدة الحزب الرسـمية ـ فى الثالثة والعشرين فهاجم الفاشية وشرح المـاركسية والنظريات السياسية التى تتعارض مع الفاشية على صفحات الجريدة فسجن ثم طرد من ايطاليا . ثم عفا عنه موسـولينى والحقه بالسـلك السـياسى .

أصدر كتـاب « تكتيك الثورة » سنة ١٩٣٨ فطلب هتلر اعـدامه .

عمل مراسلا صحفيا فى صفوف الجيش الألمـانى فى الجبهة الأوربيـة الشرقية ثم الجبهة الروسية وكتب سلسلة مقـالات من الجبهة اعتبرها موسولينى خيانة عظمى وحطا للروح المعنوية للجيش ونفاه عن ايطاليا .

كان الفضل فى انقاذ مالابارته من الموت والسجن ومن بطش موسولينى لعلاقته الوثيقة الخاصة بايدا شيانو ـ ابنة موسولينى وزوجة وزير خارجيته الشهير .

عاد مالابارته لايطاليا سرا بعد موت موسولينى فقبض عليه ثم هرب ليلبس « ملابس جندى انجليزى قتل فى معركة العلمين ومازالت ثقوب الرصاصات وآثار الدماء بها » ويقود فرقة من جيش التحرير الوطنى الايطالى تحارب فى صفوف الأمريكيين .

نشر كتاب « الانهيار التام » فى ١٩٤٧ فبيعت منه مليون نسخة فى ثلاثة شهور .

هاجم الاستعمار الأمريكى لايطاليا بعد الحرب قائلا « ان الذين ماتوا ليحرروا أوربا قد ماتوا بلا فائدة .. لأن أوربا لم تتحرر بعد » ــ ونشر كتابه « جلد الانسان » فحورب أدبه فى ايطاليا وخارجها .

زار الاتحاد السوفيتى والصين الشعبية ــ رغم « نصيحة رسمية » له لا يفعل ذلك ــ ثم عــاد لايطاليا ليموت من مرض السل الذى كان قد فتك برئتيه الممزقتين بفعل رصاصات أصيب بها فى الحرب العالمية الأولى .

أهم كتاباته « الانهيار التام » و « جلد الانسان » ومجموعة مقالاتــه من الجبهة الروســية « نهر الفولجــا ينبع فى أوربا » و « أهل توسكانيا الملاعين » وأشهر أعماله الأخرى مسرحيــة « والنساء أيضا خسرن الحرب » وفيلم « المسيح ممنوع » .

الجـــزء الأول

الخيـــول

- ١ -

كنا نجلس فى فيللا « فالدمر سودون » التى يمتلكها الأمير أيوجين شقيق الملك جوستاف الخامس ملك السويد .. وتحتنا ــ عند طرف الحديقة ــ مدينة الملاهى ثم الخليج وحوله الجبال .. وكان يوما صافيا فى شهر سبتمبر والأفق ذهبى والأعلام السويدية متناثرة فيه ترفرف فوق السفن الصغيرة وكان الناس يلبسون ملابس العيد المزركشة وهم يسيرون بمرح على الأرض البيضاء وصوت الموسيقى يصل الينا من مدينة الملاهى .. وكنا صامتين ــ الأمير وانا ــ نراقب من النافذة ثلاثة من خيول السيرك يتقدمون ناحية البحر وخلفهم مدربتهم فى رداء أصفر .. ونظرت الى الأمير أيوجين فلاحظت شدة شبهه بأخيه الملك جوستاف وباقى أفراد العائلة المالكة السويدية سلالة بيرنادوت قائد نابليون ، نفس الوجه الواضح التقاطيع والابتسامة الخفيفة الهادئة والأيدى الصغيرة الباهتة .. أيدى الفنانين .

فقد كان الأمير ايوجين رساما ـ سكن مونمارتر مع البوهيميين قبل بدء هذا القرن وسمى نفسه « أوسكارسون ».. وهو دائم التحدث عن ذكريات باريس بشغف عظيم ـ أما الملك جوستاف الخامس فقد كان يمضى امسياته فى التطريز ـ وقد رأيت بعض انتاجه يباع فى حوانيت ستوكهولم .

كنا نراقب غروب الشمس للمرة الأولى منذ شهور عديدة.. بعد مرور فصل الصيف بأيامه المتلاحقة المليئة بالضوء ـ نهار واحد لا يقطعه شروق أو غروب أو لحظة ظلمة .. أخيرا بدأت الشمس تبهت فوق التلال .. وبدأت السماء تفقد نصوعها فوق البحر واسطح المدينة . وفى الشرق بدأت ظلمة تشبه الظل فى التكوين .

ثم دعانى الأمير الى الحديقة لنرى الغروب بوضوح اكثر ـ فسرنا حتى حافة الحديقة حيث جلسنا يطوينا الصمت والليل الميت يزحف نحونا وصوت الموسيقى يصل الينا مع ضحكات مرحة .. وبالتدريج شعرت باحساس من المرارة ينمو بداخلى وتكتنفنى ثورة من الحقد على الموسيقى والمرح والطبيعة الجميلة والأعمدة الرخامية البيضاء والأمير العجوز الجالس أمامى فى هيبة .. فبدأت أصف له الأسرى الروس فى معسكر سمولنسك وهم يأكلون جثث موتاهم بعد ان منع عنهم الألمان الأكل لمدة طويلة .. بعد أن اخل الجوع باتزانهم وهم يرون زملاءهم يموتون حولهم جوعا ـ فانكبوا يأكلونهم بينما الحراس يراقبونهم فى حياد تام .. وبقى الأمير جالسا فى صمت وقد سقطت رأسه على صدره حتى انتهيت من الحديث ـ فرفع رأسه ونظر الى نظرة عتاب ولوم .

كم كنت أود لو ضحك من قصتى بمرح كما فعل أوبرجروين ديتريش قائـد حرس هتلر الخـاص حينمـا وصفت له المشهد فى فيلا السفارة الايطالية قرب برلين !!

كان قائد الحرس قد سألنى وهو يضحك « أيها المراسل الصحفى ما هى أخبار الجبهة ؟ » فنظرت الى عينيه الصغيرتين كعينى الخنزير وأسنانه المدببة كأسنان السمكة وأذنيه الكبيرتين ثم قصصت عليه قصـة الأسرى الروس فرأيت نشوة جنونيـة فى عينيه وهو يصغى لقصتى ـ وحينما انتهيت سألنى « وهل أعجبهم طعم زملائهم ؟ » وانفجر ضاحكا مظهرا لى أسنانه المدببة وسقف حلقه اللامع .

كنت أود لو أن الأمـير أيوجين ضحـك مثل أويترجروين ديتريش وسألنى « وهل أعجبهم طعم زملائهم ؟ » أيضا .. ولكنه ظل صامتا وعيناه تنظران لى بعتاب ولوم .. فبدأت أقص عليه ما حدث يوم ذهبت الى جبهة ليننجراد ...

.. كنت أركب السيارة مع ملازم ألمـانى فى الغابة خارج مدينة أونربوم وكان الملازم يتكلم باسهاب عن شاعره المفضـل هولدرلين ويترنم ببعض أشـعاره .. وفجـأة ظهـر أمـام السيارة ـ عند تقاطع الطريق ـ جندى يقف جامدا فى وسط التقاطع وقد اختفى نصفه فى الجليد وكست باقيه طبقـة بيضاء رقيقة منه وقد رفع يده ليشير الى اتجـاه الطريق .. وحينما مررنا بالجندى رفع المـلازم يده بتحية سريعة ساخرة ثم بدأ يضحك وقد ألقى برأسه الى الخلف .. وعند التقاطع التـالى ظهر جندى آخر جامدا فى وسط الطريق ونصفه مغمور فى الثلج وذراعه مرفوع . قلت للملازم « قد يموت هؤلاء المسـاكين من

البرد » ـ فنظر الى واجاب « ليس هناك خطر من ان يموتوا من البرد ـ لاريب انهم اعتادوا عليه حتى الآن » ثم ضحك بشدة حتى انه اضطر أن يوقف السيارة . وحينما انتهى من الضحك قال لى « اذهب لترى الجندى عن قرب واسأله اذا كان يشعر بالبرد » فتقدمت نحو الجندى فاذا به ميت .. عيناه مفتوحتان وفمه منفرج قليلا . ولاحظت ملابسه تحت طبقة الثلج فاذا به أسير روسى . وصاح بى الملازم قائلا « هل رأيت الآن عساكر المرور الصامتين الذين نستعملهم ؟ » فاستدرت اليه وسألته « هل تضعونهم فى أماكنهم أحياء ؟ » فأجابنى بسرعة « أحياء طبعا » .

ـ « اذن فهم يتجمدون ؟ » .

ـ « لا . لا انظر الى جانب راسه ترى ثقب الرصاصة . انها فكرة لا بأس بها ، أليس كذلك ؟ الا يجب أن يكون للأسرى الروس نفع ما ؟ » .

وقاطعنى الأمير أيوجين قائلا « كفى ـ أرجوك » ثم دخلنا الى الفيللا مرة اخرى . وبينما نحن نشرب الشاى سمعنا صهيل خيول مدينة الملاهى وهى عائدة من البحر فقص على الأمير ما حدث فى آخر عرض للفروسية أقيم فى ستوكهولم فاتريتكلوب .. كيف أن الحصان « فوهرر » هزم فى القفز فخاف الحاضرون أن يستغل هتلر ذلك كحجة لغزو السويد وكيف أن الحصان « مولوتوف » سحب من السباق نظرا لتوتر العلاقات حينئذ بين السويد وروسيا .

وفى الخارج كان الضوء ينقص تدريجيا ليحتل محله لون بنفسجى باهت بدا يزحف الى الغرفة . وكان احساسى بالخجل قد بدأ يستحوذ على ـ خجل ممزوج بالخوف ـ هو ما اكتسبته

من رحلاتى العديدة بين جبهة وجبهة كمراسل حربى لجريدتى فى خطوط النار .. رحلات كثيرة قمت بها فى أوربا ـ بين فنلندة شمالا وايطاليا جنوبا .. محاطا بالجائعين والحاقدين فاقدى الأمل ـ وكنت فى كل رحلة أحاول المرور بالسويد والبقاء بها أياما .. تلك الجزيرة النضرة وسط الدمار الذى حل بأوربا . ففى السويد كنت أحس بالحياة مرة أخرى .. بالتحرر من الخوف ـ بقيمتى كانسان وقيمة الأخرين كآدميين .. وكنت فى بعض الأحيان اثور على هذه المشاعر التى ما عدت أمتلك حق الشعور بها مادمت أوربيا ـ فهناك ـ خارج السويد ـ سأمر فى ألمانيا فى طريق عودتى لوطنى ـ بين الوجوه المتعبة المغطاة بالعرق والدموع .. ثم أصل الى ايطاليا فأرى وجوه مواطنين بيضاء من الجوع جافة من الخوف .. سأرى صورتى وصورة وطنى فى هذه الوجوه البيضاء الخائفة وفى العيون السوداء القلقة التى تتوقع الشر وتنتظره فى الطريق وفى المقهى وفى عربات الترام . وفى عربات الأطفال .. تلك الرؤوس المنحنية فوق الأجساد الضامرة التى تتحرك بخوف وحذر وتوتر تحت صور موسولينى الكبير . الرأس البيضاء المستديرة المنتفخة والعينان الجبانتان والفم الكاذب ـ .. كانت هذه الذكريات تدفعنى للحقد والغضب والثورة .

وكان الأمير أيوجين ينظر الى اللوحات الزيتية التى تكاد تخفى جدران الحجرة ـ لوحاته هو وزملاؤه من الرسامين ـ صور من باريس ـ المدينة التى يعشقها أكثر من حب عاشق لمحبوبته .. وفجأة سألنى وصوته يتهدج « انك سافرت كثيرا ـ فهل رأيت الجنود الألمان فى باريس ؟ » .

واشفقت وصعب على الرجل العجوز ذى التقاطيع الحادة والابتسامة الهادئة والأيدى الصغيرة الباهتة فأجبته كاذبا « لقد رايت الجنود الألمان فى كل مدينة فى أوربا .. ولكننى لم أرهم فى باريس ... » .

- ٢ -

كان النهار قد فقد ضوءه واحتلت الظلمة رقعة من السماء انسحب عنها ضوء الشمس ـ وكان اللون الأخضر الباهت غالبا على السماء .. وذكرنى ذلك بغروب أخضر آخر شهدته فى صيف ١٩٤١ وأنا فى طريقى الى نيمير وفسكوى حيث، كانت القوات الألمانية تلاقى مقاومة عنيفة من المدافعين الروس .

هبط على الغروب الأخضر وانا قرب قرية الكسندر فسكا فتركت سيارتى للبحث عن مكان أبيت فيه ـ وكانت منازل القرية كلها محطمة ومازال اغلبها يحترف . وفى حديقة صغيرة عند مدخل منزل لم يصبه كثير من العطب رايت جيفة فرس ملقاة على الأرض ـ ميتة ورأسها محطم وقد انتفخت بطنها حتى كادت تنفجر . تخطيتها ودخلت المنزل فوجدته فى حالة لا بأس بها .

وفى الليل سمعت صهيل حصان . قفزت من الفراش وأنا ممسك بمسدسى وخرجت من الباب فلم أر الا الفرس الميتة فى الظلمة . ثم سمعت الصهيل مرة أخرى . وهيألى التعب والرهبة انها الفرس الميتة تلك التى تصهل وتتأوه .

وفى الفجر ـ بعد ليلة مليئة بالأحلام المزعجة ـ ذهبت للباب مرة اخرى فاذا بمهر صغير واقف بجوار الجثـة العفنة التى قد فقدت الكثير من انتفاخها .. وأخذت المهر الصغير الى فرقة من الجنود الرومانيين ليطعموه .

وحاولت مرة اخرى ان اصـل الى موقع المعركة ولكننى وجدت جنديا يمنعنى فى كل مكان « فربوتن (ممنوع) .. زوروك (عد من حيث أتيت) » . فقررت التوجه الى طريق بالتا ومنه شمالا نحو كييف وكانت الأرض على جانبى الطريق مقبرة لآلات الحرب .. مئات من الدبابات والسيارات المصفحـة المحطمـة أو المحترقة رائحتها هى رائحة الزيت والحديد المصهور والطـلاء المحترق .. بل رايت أيضـا طائرة مسر شميت المـانية مشتعلة وانفها فى الطين .

وقفت فى قرية روسية اخرى لأستريح وآكل الخبز الجاف وبعض الجبن مما أحمـل معى .. دخلت بناء كبيرا فوجـدت صورة ضخمـة لستالين تغطى حائطا منه ومنشـورات الحزب الشـيوعى ملقاة فى كل مكان .. لا ريب أن هـذا مركز الحـزب بالقرية .. ثم لاحظت كلمة مكتوبة بقطعة من الفحم تحت صورة ستالين .. « أيوريا !! .. » ـ ومعناها فى اللغة الرومانية : « احقـا !! » .

ووجدت الرومانيين فى منزل آخر ـ خمسة أو سـتة من الجنـود ومعهم جاويشـهم . دعونى للجلوس معهم وقدموا لى شوربة الدجاج والشاى وتحدثنا فقال لى الجاويش انهم مجموعة صغيرة تركت فى تلك القرية بينما تقدمت بقية الفرقـة . « ولكن الألمـان مروا هنا قبلنا » قال الجاويش ذلك وهو يضحك فضحك الجند الآخرون .

ـ « أيوريا ؟ » .

ـ « حقا . اسأل الأسير اذا كنت لا تصدقنى ـ اننا لا نحطم المنازل وننهب القرى ونقتل الفلاحين كالألمان . اننا لا نقتل الا اليهود » ثم استدار الجاويش الى ركن مظلم وسأل الأسير « أليس حقا أن الألمان مروا من هنا قبلنا ؟ » .

لم اكن قد لاحظت الأسير من قبل . نظرت اليه فاذا به تاتارى يلبس رداء كاكيا وقبعة صغيرة وقدماه عاريتان . وكان وجهه صغيرا وجلده مشدودا على عظمتى وجنتيه وعيناه صغيرتان كزرارين اسودين . وكان الأسير ينظر الى غير حافل بالرد على سؤال الجاويش .

ـ « وأين أمسكتم هذا الأسير ؟ » .

ـ « كان داخل سيارة مدرعة تعطلت فى وسط القرية . استمر يطلق النار هو الآخر الذى كان معه وقاتل حتى نفذت كل الذخيرة التى معه ثم رفض الاستسلام . ظل جالسا بداخل السيارة لمدة ثلاثة أيام حتى كسرنا بابها بعتلات حديدية .. كان الأبسط أن نطلق عليه قنبلة ولكن قيادتنا فى بالتا أمرتنا أن نأخذ الأسرى ونرسلهم هناك ـ ولست أدرى كيف سنرسل هذا » .

وسألت الجاويش لماذا أخذوا منه حذاءه فضحكوا جميعا ثم أجابنى رئيسهم « ان حذاءه جميل جدا .. انظر أيها الملازم الصحفى اى أحذية جميلة يلبسها هؤلاء الخنازير الروس .. » وبينما يخرج لى من تحت عتاده الحربى حذاء ذا رقبة من الجلد الطرى وليس له كعب أردف قائلا « انهم يلبسون خيرا منا » .

ـ « الا يعنى ذلك ان وطنهم خير من وطنكم ؟ » .

ـ « ان هؤلاء الخنازير ليس لهم وطن .. انهم حيوانات ».

ـ « ولكن الحيوانات أيضا لها وطن ـ أليس كذلك ؟ » .

ونظر الى الجاويش الرومانى وهو صامت اذ لم يفهم ما أقول وفجأة أشار الى الحذاء فى يده وقال « ان حذاء كهذا يساوى على الأقل مئتى قطعة فضية » .. وهز بقية الجنود رؤوسهم تصديقا على كلام رئيسهم وغمغموا يقولون « نعم ـ على الأقل مئتى قطعة » .

انهم فلاحون جهلة .. لا يعرفون شيئا ـ بل انهم يجهلون أيضا كيف يكونون فلاحين حقيقيين ـ كل ما يعرفونه هو أنهم رومانيون وانهم يتبعون الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية وكيف يصيحون « ليحيا الملك » أو « ليحيا المارشال انطونسكو قائد جيشنا » أو « اتسقط روسيا » ـ ولكنهم لا يعرفون حقيقة الملك أو المارشال انطونسكو او روسيا ـ كفاهم علما أنهم يعرفون أن هذا الزوج من الأحذية يساوى مئتى قطعة فضية ـ على الأقل . انهم فلاحون جهلة تركوا محاريثهم وفؤوسهم ليمسكوا بأيديهم الخشنة البنادق ويحاربوا روسيا .. تلك الآلة الهائلة .. ملايين الآلات الصغيرة التى هى روسيا .

ـ « ان المارشال أنطونسكو يملك مئة حذاء برقبة ـ كل منها أحسن من هذا بكثير » .

نظر الجاويش الى جنده وهم متعجبون . « حقا مائة حذاء ؟؟ » .

ـ « مائة الف حذاء برقبة . أحذية جميلة من الجلد الأصفر والأحمر والأبيض والاسود عليها نقوش ملونة وازرار

لامعة . ان احذية المــارشال أنطونسكو لأجمل بكثير من احذيــة هتلر أو موسوليني ـ بالطبع أحذية هتلر جميلة ـ لقد رأيتهــا عن قرب ـ ولكنه لا يلبس المهمازين لخوفه من الجياد ـ أما أحذية موسوليني فانها جميلة بدون فائدة اذ انها لم تصنع للمشى بل ليقف بها على المنصــة خلال الاستعراضات بينما يمر أمامــه الجنود بأحذيتهم البالية وبنادقهم الصدئة » .

وسكت الجنود قليلا يفكرون ـ ثم قــال الجاويش « بعد نهايــة الحرب سنذهب الى المــارشال انطونســكو وننزع عنــه حذاءه » .. ونظر الى جنده الذين ضحكوا وهم يقولون « وهتلر.. وموسوليني ايضا» .

ثم قلت للجاويش انني ذاهب الى بالتا بسيارتي وطلبت منه أن آخذ الأسير وجنديا لحراسته معي .

وفي الطريق قدمت سيجارة للجندي واخرى للأسير ولكنه لم يتمكن من الامساك بها بأصابعه لشدة الرباط حول معصميه ـ فوضعت السيجارة في فم الأسير واشعلتها له فابتسم لي وقــال « بلا جودداريو (شكرا) » .. ونظرت الى يديه فاذا هما ناعمتان كيدي طبيب أو صانع ساعات .. انهما يدا فلاح روسي مرت به مشروعات الخمس سنوات المتتالية وعمــل بالمزارع الجماعيــة فصار ميكانيكيا يعمل في ارضــه بالآلة .. فلاح رفعه ستالين عن الأرض وجعله في سنين قليلة مرفها منتجا .. آلة صغيرة ذات أيد ناعمــة .

ستالين .. « أحقا ؟ !! » ..

- ٣ -

اكل حصان الكولونيل ميريكانيو وجبته من شعير السليلوز ثم رفع أنفه فى الهواء وشـمه عدة مرات ثم صهل بصوت عال .. وقال لى الكولونيل « انه يشم رائحة خيول بحيرة لادوجا .. لقد آن الأوان لدفنها » .

كان يتكلم عن تلك الخيول التى حاصرتها الثلوج فى البحيرة فتجمدت طوال اشهر شتاء ذلك العام ١٩٤٢ الذى لم تشـهد فنلنده شتاء فى شدته منذ زمن طويل .. ذلك الطـاعون الأبيض الذى ملأ مستشفياتها ومقابرها .

وكانت طلائع الربيع قد اقبلت وبدات علامات المرح تبدو على وجوه الجنود وعدنا نسمع أغنيـات الحب الخفيفة بين خيـام المعسكر ـ ولكن الربيع مرض خطير بجوار القطب الشمالى لأنه يطلق سراح الأجسام المختلفة التى كان الشتاء قد حفظها متجمدة فى سجن من الثلج .. يطلق الثلج سراحها فتتعفن .

وخرجنا ـ انا والكولونيل ـ نسـير فى الممر الضيق الذى كثيرا ما قطعناه لنذهب الى بحيرة لادوجا حيث نجلس على رؤوس الخيل ويحـدثنى عن قريتـه الصغيرة على الخليج الفنلندى فى مواجهة لييننجراد وعن زوجتـه الروسية الفرنسـية « كولتـا الصغيرة » وهو يطرق غليونه على باطن كفه ليفرغه من التبغ .

وبدات قصة الخيول المتجمدة فى شهر اكتوبر من العـام السابق حينما حاصر الفنلنديون قوة كبيرة من المدفعية الروسـية

فى غابة رايكولا وهاجموها بقوة هائلة من جميع الجهات .. فركز الروس قواهم فى نقطة معينــة وكسروا الحصــار الفنلندى ثم اتجهوا نحو بحيرة لادوجا حيث كانوا ينتظرون حضــور سـفن النقل من الشاطىء الروسى المقابل لتنقل الجنود والخيول والمدافع. ولكن مراكب النقل تأخرت وفى نفس الوقت أشعل الفنلنديون النار فى الغابة ليحاصروا الفرقة الروسية وما أن أحست الخيول بالنار حتى اندفعت فى رعب شديد الى البحيرة .

وكان عمق البحيرة بجوار الشاطىء حوالى المترين ولكن على بعد حوالى العشرة أمتار من الشاطىء ينحدر القاع فجأة .. وفى هــذا الافريز الضيق وقف حوالى الألف حصــان ملتصقين تماما وهم يرتجفون من البرد والرعب ويصــهلون بفــزع وقــد رفعوا رؤوسهم فوق المــاء . وكلما هبت الريــاح من الجنوب والقت بألسنة النار تجــاه البحيرة علا صهيل الخيول القريبة من الشاطىء وبدات فى معارك حاميــة : عضا وركلا للخيول الأخرى علها تبعد نفسها الى داخل البحيرة قليلا .

ثم جاءت رياح المورنسك الشمالية القارصة البرودة . وفجأة صــدر عن البحيرة صــوت كانشقــاق الزجــاج وصار المــاء ثلجا ــ وهذا دأب الرياح القطبية الباردة : تقدم فجــأة وتهب بعنف حتى يتحول ميزان الحرارة فجأة الى أقل من درجة التجمد فيجمد المــاء مرة واحدة حتى ان أمواج البحر تتجمد فى أماكنها

كأنها كتل من الزجاج .. ثم تستمر الرياح وتسوى وجه البحر فيصير كالمرآة الملساء .

وحينما وصلت طلائع قوة الكولونيل ميريكانو الى البحيرة فى اليوم التالى ـ وهم يخطون على رماد الأغصان ويزيدون من تدثير وجوههم الزرقاء بالصوف ـ فوجئوا برؤية البحيرة المتجمدة كسطح من المرمر عليه مئات من رؤوس الخيل تنظر الى الشاطىء وقد ملأ الرعب عيونها وتحول الزبد فى افواهها المفتوحة الى تلج ...

ومرت شهور الشتاء وكان جنود المعسكر يذهبون الى البحيرة فى أيام الآحاد ليجلسوا على رؤوس الخيل المتجمدة وينظرون الى الشاطىء الروسى البعيد ـ وقد جعله الضباب غامض المعالم ـ ويتبادلون الفكاهات والقصص أو يغنون معا الألحان الفنلندية الحزينة .

وفى ذلك اليوم ـ ذهبت الى البحيرة مع الكولونيل لنرى الخيول لآخر مرة . كانت ريح الجنوب قد بدأت تهب بدفئها وبدأ الثلج فى الانصهار وبدأت رؤوس الخيل تغطس فى البحيرة .. ثم تقدم الجنود يحملون فؤوسهم ويحطمون الثلج فتغطس الخيول ثم تظهر مرة أخرى طافية على ظهرها فى الماء الأبيض القذر المليء بقطع الجليد وفقاقيع الهواء .. ويتقدم الجنود ليربطوا الخيول بالحبال لتجرها خيول الفنلنديين حتى ذلك الثقب الكبير الذى كان معدا كمقبرة لخيول البحيرة ..

وقفت اراقب هذا وانا افكر .. لقد كان الحصان دائما رمزا لأوربا ـ كان الحصان رمزا للحياة الأوربية والشرف الأوربى والفروسية الأوربية .. وهناك ـ على شاطىء بحيرة لادوجا فى ذلك اليوم ـ كانوا يدفنون الحياة الأوربية والشرف الأوربى والفروسية الأوربية عند قدمى ..

ان كل ما كان نبيلا وطاهرا ونقيا قد مات ..

.. عندما انتهيت من قصتى بقى الأمير أيوجين صامتا فترة من الوقت وهو يراقب السماء السوداء ثم قال « ليتنى استطيع ان اشعر بالتعاسة مثلك »

قلت « ليتنى أستطيع أن أشعر بالسعادة مثلك أنت » .

الجـــزء الثـــانى

الفئـــــران

- ١ -

كنا نتناول طعام العشاء على مائدة وزير الرايخ فرانك حاكم بولندة العام حينما لطم فرانك المائدة فجأة بقبضة يده وصاح « أنا الملك ــ دركوينج » . ملك بولندة الألمانى » ــ فابتسمت . وسألنى فرانك عن سبب ابتسامتى فقلت له « لقد قابلت كثيرا من الملوك وتناولت العشاء على موائدهم ولكننى لم أسمع أيا منهم يصيح (أنا الملك) من قبل » فابتسم فرانك قائلا « انك على صواب . اننى لست ملكا حقا ولكن أصدقائى فى برلين يسمون بولندة (فرانك رايخ) اى دولة فرانك لأن فى يدى حياة أو موت البولنديين .. ولو ان البولنديين لا يستحقوننى ملكا عليهم ــ انهم حفنة من ناكرى الجميل » .

ــ « انهم ليسوا بناكرى الجميل .. انهم شعب أبى ذو عزة وانت سيد أجنبى عليهم » .

ـ « اننى سيد المانى . ان البولنديين لا يستحقون أن يحكمهم سيد المانى » .

وهمهم الحاضرون يوافقون على قوله . ثم استطرد فرانك قائلا « انك لا تدرك ياما لا بارته أن من العسير جدا أن تكون حاكما أجنبيا لدولة ما .. على الأخص اذا كانت دولة تتبع المذهب الرومانى الكاثوليكى كبولندة . انك تجد نفسك وجها لوجه مع الفاتيكان فى كل خطوة تخطوها . ان كل بولندى يقف وخلفه البابا المقدس بنفسه ـ هل يختفى البابا خلف ظهر كل ايطالى ايضا ؟ » .

ـ « ان الإيطاليين لا يأتمنون ان يقف أى انسان خلف ظهورهم ـ حتى البابا نفسه »

وضحك الحاضرون جميعا بينما صاحت زوجة فرانك ـ ملكة بولندة الألمانية ـ وهى تربت على كتفى « انك ولد شقى » .

ثم سألنى فرانك « اننى أعجب كيف يمكن لموسولينى ان يعيش فى سلام مع البابا » . فأجبته « فى بادىء الأمر كانت هناك مشاكل كثيرة بينهما وهما يعيشان فى مدينة واحدة وكلاهما يدعى لنفسه الكمال .. ولكنهما اتفقا بعد ذلك وقسما حقوقهما ومناطق نفوذهما فعاشا فى سلام . فحينما يولد الايطالى يأخذه موسولينى تحت جناحه فيدخله روضة الأطفال ثم المدارس ثم يضمه للحزب الفاشستى أو يعلمه صناعة ويوجد له عملا يلحقه به حتى سن العشرين ثم يضمه للجيش لمدة سنتين ثم يعيده الى عمله ويزوجه واذا رزق له أطفال يأخذهم تحت جناحه ليمروا بنفس المراحل وحينما يكبر الرجل ويصبح غير قادر على العمل يصرف له موسولينى معاشا وينتظر حتى يموت وعندئذ يسلمه الى البابا ليفعل به ما يشاء » .

وكاد فرانك أن يختنق من الضحك بينما ضج الحاضرون يضحكون ويصيحون « مدهش .. مدهش » . ثم قال فرانك أنه سيحاول اتباع نفس النظام مع البولنديين .. وسألني بالألمانية « الا تعتقد ذلك ؟ » فأجبته « لا » فسألنى نفس السؤال مرة أخرى بالايطالية فأجبته « نعم » فسألنى « لماذا اذن جاوبتنى بالنفى فى أول مرة ؟ » فقصصت عليهم قصة الفلاح الروسى الذى قال لا ثم نعم ..

... ذهبت فى صيف عام ١٩٤١ الى قرية بستشانكا فى اقليم الأوكرين لأزور مزرعة جماعية كان الروس قد تركوها خلفهم بمبانيها وآلاتها الزراعية وأحواض زهور عباد الشمس كما هى ولم يأخذوا معهم الحبوب أو الدواجن أو الماشية أو الجرارات.. رأيت فلاحا روسيا عجوزا واقفا بجوار احدى المحاريث وهو يلمعها بالزيت بقطعة من قماش الجوخ وكأنما الحرب قد انتهت أو أنها لم تمر بذلك المكان .. ثم وصلت فرقة من جنود الصاعقة بملابسهم السوداء ونادى ضابطها بالألمانية على الفلاح الروسى فتقدم العجوز اليه وهو يعرج وسأله الضابط « هل انت يهودى ؟ » فأجاب الفلاح بالألمانية « لا — لست يهوديا » . فدقق الضابط النظر فى الفلاح قليلا ثم قال له بالروسية « انك تكذب . ان ملامح وجهك تدل على أنك يهودى » فأجابه الرجل « نعم أنا يهودى » فسأله الضابط « ولماذا أنكرت أولا ؟ » فأجاب الرجل « لأنك سألتنى أولا بلغة الغزاة لا بلغة وطنى » فبصق الضابط فى وجه الفلاح وصاح بجنده « اعدموه » .

وضحك الحاضرون .

ثم عاد الحديث مرة أخرى الى البولنديين فقال ولسجر مدير الأمن الألمانى « ان العامل البولندى لا بأس به ولكن به

عيب خطير وهو انه يمزج الوطنية بمشاكل العمل التكنيكية ومشاكل الانتاج .. على أن النظريات الجديدة للعمل الصناعى تحتم ابعاد العوامل التى لا تمس العمل نفسه عن المصانع والعمال .. وأول هذه العوامل هى النزعات الوطنية » .

وأمن فرانك على كلامه قائلا « هذا حقيقى . ان الدافع الوطنى عند العامل مختلف تماما عنه عند الارستقراطيةوالطبقة الوسط » . فعاد مدير الأمن يقول « نعم ــ ويجب أن يدرك العامل أن وطنه الحقيقى هو آلته ومصنعه وانه حين يدير آلته فانه يساهم فى انقاذ وطنه هذا من الدمار أما اذا لم يتعاون معنا فسنضطر لتحطيم الصناعة البولندية » .

وعاود فرانك الحديث فقال « المشكلة هى كيف نحطم وطن العمال غير الطبيعى ــ بولندة ــ وننقذ وطنهم الطبيعى ــ آلاتهم ومصانعهم ــ من الدمار . اننا نجد أنه من السهل جدا تحطيم وطن الطبقة الارستقراطية والطبقة الوسطى أما وطن العامل فهذا صعب التحطيم » فقاطعه مدير الأمن قائلا « الا اذا حاربنا العامل بالفلاح » .

فقلت له « ولكنكم قد تخسرون الحرب هكذا » .

فأجاب مدير الأمن « نعم » . وهنا قالت السيدة فرانك « ربما كان من الأسهل كسب العمال بالعطف والحب . ان البولنديين رومانيكيون ويحبون أن يبدى الناس اهتمامهم بهم وعطفهم عليهم . اننى أحكم عليهم طبعا عن طريق نسائهم . فقط ولكن يمكن للانسان أن يحكم على أى أمة عن طريق نسائها » .

وابتسمت سيدة بولندية ارستقراطية وقالت « ان نساء بولندة جميلات ورشيقات ولكنهن لا يستحممن كثيرا » وأردف

زوجها « هـذا صحيح ـ ولكن عندهن العذر وهو ندرة الصابون » .

فصاح فرانك « فى القريب العاجل لن يكون لهن هـذا العذر. فقد اكتشف العلماء الألمان طريقة جديدة لعمل الصابون من مادة لا تتكلف شيئا مع وفرتها . وقد طلبت كمية من هذا الصابون لتستحم به البولنديات .. ان هذا الصابون يصنع من روث الحيوانات » .

وصاح عدد من الحاضرين « من روث الحيوانات ؟ ! »

ـ « نعم . ولكنه صابون جيد جدا . لقد جربته بنفسى فوجدته جديرا بالملوك .. غير أن به عيبا واحدا » .

ـ « ما هو ؟ »

ـ « ان له نفس لون الروث ورائحته » .. وقهقه ملك بولندة الألمانى ضاحكا وهو يلطم المائدة بقبضة يده .

ـ ٢ ـ

لم اكن قد رايت النفسية الألمانية عارية كما رايتها فى بولندة .. كنت قد استنتجت خلال خبرتى فى مدة الحرب أن الألمانى المعتاد لا يخاف العدو القوى الذى يواجهه بسلاحه وعتاده ولكنه يرتعد خوفا من ذلك العدو الضعيف المريض الذى لا سلاح لديه . وكنت أعتبر أن الدافع الأساسى للحرب ـ نفسيا ـ والسبب الأول الذى جعل الألمان يرتكبون أعمالا متناهية فى العنف والقسوة هو خوفهم الشديد من غير القادر ، من الضعيف،

من الذليل ، من النساء والأطفال ومع أن الألمان يحاولون دائما أن يخفوا ذلك الخوف الا انهم كلما جلسوا معا تطور حديثهم الى العنف والقتل والتحطيم والاجاعة كأن نفسياتهم المعقدة تلك ترغمهم على المفاخرة بالأعمال التى يعملونها .. بتلك الجرائم التى تجعلهم يحسون بضعتهم وحيوانيتهم واجرامهم .

وتطرق الحديث فى تلك الليلة الى معسكرات الاعتقال وسألنى فيشر حاكم مدينة وارسو اذا كنت قد زرت أيا منها فأجبته بالايجاب .. وقد ملأت ذكريات تلك الزيارة راسى .

تخطيت الحائط الذى بناه الألمان بالطوب الأحمر لعزل ذلك الجزء من مدينة وارسو الذى خصص لحوالى النصف مليون يهودى بولندى .. تلك « المدينة الممنوعة » التى ما كان يقربها أحد . وساد المدينة الصمت حينما دخلنا فقد كان الجنود الألمان من فرقة الصاعقة لا يدخلونها الا ليجمعوا بعض البولنديين ويسوقوهم الى الميدان حيث يوقفونهم امام الحائط ويعدمونهم رميا بالرصاص . ساد الصمت حينما دخلنا المدينة ـ أنا بملابس الضباط الايطاليين وخلفى حارس من ضباط الصاعقة بملابسه السوداء ـ وسرنا فى شوارع المدينة مارين بالأبواب المفتوحة والجماعات الواقفة تنظر الينا بعيون سوداء جوفاء قد فرغت من الأمل والمعنى .. عيون تتبعنا بينما الأجسام الممتدة بينها وبين الأرض ضعيفة رفيعة تنتهى بأقدام متورمة ملفوفة فى خرق كثيرة تركل الأسفلت المغطى بالثلج لعلها تجد بعض الدفء فى الحركة . اصطدمت بواحد منهم وقلت له « آسف المعذرة » فنظر الى كأنه لا يصدق أذنيه ثم ظهر شبح ابتسامة على وجهه الأبيض كأنه مصنوع من الورق القذر .. لقد أسعدته كلمتى الصغيرة .

تقدمنا فى شـوارع المدينـة عبر الجنـود اليهود المعينين هناك ـ وقد ختم على ذراع كل منهم نجمة داوود ذات الرؤوس الستة ـ ونحن نخطو عبر جثث الموتى المسجاة على الرصيف وقد أطبقت أذرعها على صـدرها واحيط كل منها ببعض الشـمعدانات الخالية من الشمع . كان الموتى راقدون هنـاك على الرصيف وهم ينتظرون عربات اليد التى تمر لتجمعهم .. ولكن عددهم كان كبيرا والعربات قليلة فكانت بعض الجثث تبقى مسجاة فى أماكنها ثلاثة أيام أو اربعة كأنها تماثيل خشبية وجوهها زرقاء وعظامهـا بارزة وعيونها مفتوحة تراقب المـارين دون أن تراهم .

كان الصمت مسيطرا على المدينة الممنوعة ـ صمت ثقيل شاذ كأن الأفواه ليست ساكنة فحسب بل قد أطبقت فكوكها بعنف حتى كادت تلتحم . وسرنا فى الطريق الصامت بين أرصفة الموتى والأقدام التى تركل الأرض بحثا عن الدفء وعبر الأبواب المفتوحة وأنا اتقدم حارسى وأصطدم بهذا أو ذاك وأقول « آسف ـ المعذرة » فأرى تلك الابتسامات الميتة المختلطة بالتعجب والشكر على تلك الوجوه البيضاء لون الورق القذر .

وقابلنا احدى عربات الموتى : يجرها بعض الشبان خطوة أو اثنتين ثم يوقفونها وينحنون ليرفعوا ميتا متجمدا ثم تستأنف العربة سيرها تاركة على الرصيف مساحة عارية خالية من الثلج لها شكل الجسد الانسانى وبها تلك البقع الصفراء التى تتركهـا الجثث وحيثمـا وضعت وحولها تلك الشمعـدانات الصـدئة المعوجة الخالية من شـموع .. وكان خلف العربة بعض الأطفـال يجمعون قطع الملابس الصغيرة التى تسقط عن الموتى ويبحثون تحت الثلج على جانبى الطريق عن اكوام القمامة علهم يعثرون فيها على قطعة من الخبز العفن أو قشور البطاطس النيئة .

دخلنا احد المنازل فقام الشاب الذى كان جالسا يقرأ بجوار النافذة واقفا وخلع حذاءه وجاكتته الممزقين ووضعهما بجوار أمه العجوز ثم تقدم الى الباب قائلا « هيا بنا » . وقال لى حارس أن بعض السجناء كانوا يخلعون ملابسهم تماما ويوزعونها على أقاربهم وأصدقائهم ويسيرون عرايا وحفاة تحت الثلج المنهمر حتى الحائط أو غرف الاعدام .

وحينما قاربنا باب الخروج وجدنا جماعة منهم ملتفين حول فتاتين تتشاجران وقد أمسكت كل منهما بشعر الأخرى . وما أن رأونا حتى تفرق الجمع ووقفت الفتاتان وقد سقطت قطعة البطاطس النيئة التى كانتا تتشاجران عليها بينهما . وانحنت واحدة منهما لتأخذها بينما وقفت الأخرى تجمع شعرها بيديها . بحثت فى جيبى عن شىء أعطيه لها . اخرجت بعض النقود ثم تذكرت أنه ليس هناك ما يمكنها شراءه بالنقود فى تلك المدينة الجائعة . ثم وجدت سيجارا كان فيشر حاكم وارسو قد أعطاه لى فوضعته فى يدها . فابتسمت الفتاة وقالت « شكرا » ثم نظرت الى حارسى جندى الصاعقة واستدارت تسير مبتعدة عنا وهى ترفع السيجار من وقت لآخر الى أنفها لتشمه ــ .. كأنه وردة جميلة ..

قلت ــ « نعم يا وزير الرايخ فيشر ــ لقد زرت معسكرات الاعتقال » .

وقالت السيدة فرانك « اننى لا أحبها .. انها قذرة جدا » ولكن فيشر أسرع بقوله « ولكنها أحسن معسكرات للاعتقال فى الرايخ الألمانى كله وأنظفها واننى فخور بها جدا واعتبرها مثلا لما يجب أن تكون عليه معسكرات الاعتقال . ولكن هناك شىء

بضايقنى فى المدينة الممنوعة . انها صغيرة جدا . لقد اضطررنا لاسكان نصف مليون حيث كان يسكن ثلاثون ألف بولندى . انها مزدحمة جداً » .

فقال فرانك « ولكنهم يحبون الزحام » وعادت زوجته تقول « وهى قذرة جدا . ان الألمــانى لا يمكنــه أن يعيش فى قذارة كهــذه » .

ــ « طبعا . ان الألمــانى متمدن » .

وقال مدير الأمن « انهم يحبون القذارة كأن القذارة بيئتهم الطبيعية أو كأنهم مرضى لا يجدون ملجــأ لهم الا القذارة ليعيشوا فيها .. انهم لا يختلفون كثيرا عن الفئران » ..

وعاد حاكم المدينة يقول « وهناك مشكلة أخرى بالنسبة لهم وهى كثرة الموتى . لقد مات منهم ٤٢ الفا فى الشهر المــاضى .. ولكنهم كالفئران تماما كلمــا زاد عدد موتاهم زادت مواليدهم » وسألته كيف يدفنون الموتى فأجاب « بطريقة صحية جدا طبقة من الموتى وطبقة من الجير الحى وهكذا .. أتدرى يا كابتن مالابارته ؟ اننى أعتقد أنهم يموتون بكثرة لأنهم لا يرغبون فى الحياة . الا تعتقد اننى اذا أصــدرت أمرا بأن يتكفل أقارب كل ميت بمصاريف دفنه قد يقلل ذلك من نسبة الوفيات بينهم ؟ » .

وقبل ان أجيبه كان فرانك قد ملأ كأسه بالنبيذ مرة أخرى وهو يقول « اشربوا . اشربوا . ان هــذا الخمر لم يصنع من دماء البولنديين » .

- ٣ -

وعادت ذاكرتى الى مدينـــة جاسى عاصمة اقليم مولدافيـا الرومانى عند بدء الحرب الألمـانية الروسية فى يونيو ١٩٤١ . تذكرت يوم عدت الى منزلى فوجدت البقال كين ينتظرنى عند الباب وبرفقته ثلاثة رجال بلحى . وكان كين صديقا لى كثيرا ما اعطـانى الشاى الروسى النادر واللحوم المجففة التى كان يخفيها فى منزله .

دخلنا المنزل وجلسنا وأنا أنعم النظر فى أكبر الأربعة ســنا فقد كان شــكله مألوفا . ثم بدأ الرجــال يفصحون عن سبب زيارتهم لى . قالوا أنه قد ترامى الى أسماعهم ان كولونيل لوبو حاكم جاسى العسكرى يعد العدة لمذبحة للأهــالى ورجونى أن أحاول التوسط لدى الكولونيــل حتى أنقذ الآلاف من ســكان جاسى : فقلت لهم « ولكننى غريب ولست عسكريا رغم الزى الذى البسه . ان للكولونيــل الحــق فى طردى من مكتبــه . بل من مولدافيا كلها » فانبرى أكبر الرجال سنا يقول « ولكنه مسيحى وقد يستمع الى قولك . ان موقفنا خطير جدا ولابد من عمــل ايجابى بسرعة » ــ فقلت له « ولكنهم لم يتخذوا اية اجراءات حتى الآن . ثم اننى فقدت القدرة على العمل الايجــابى . اننى ايطالى والايطاليون جميعا ما عادوا قادرين على العمل الايجــابى أو على تحمل المسئولية . لقد كانت كل قوانا موجهــة خلال عشرين عاما مضت للابقاء على حياتنا وكياننا فلم نعد نقــدر على القيام بأى عمل آخر .. الا التصفيق والهتاف . اذا كنت تريدنى ان اذهب الكولونيل لوبو لأصفق واهتف له فأنا مستعد لذلك .

بل انا مستعد للذهاب الى بوخارست لأصفق واهتف للجنرال انطونسكو اذا أردتم ذلك . ولكن ليس باستطاعتى عمل شىء آخر. ليس باستطاعتي ان أموت رميا بالرصاص فى ميدان يونيرى فى سبيل فئة من سكان جاسي اذ لو كان هذا باستطاعتى لكنت مت منذ زمن طويل رمياً بالرصاص فى ميدان ايطالى فى سبيل الايطاليين بنىْ وطنى . اننا ما عدنا قادرين على العمل وما عدنا نعرف كيف نعمل عملا ايجابيا . هذه هى حقيقتنا » .

فقال لى الرجل العجوز « ولكنك عرفت كيف تحاول الانتحار فى سجن ريجينا كويلى فى ايطاليا » فتذكرته فى الحال : دكتور اليزى مدير السجن الذى انقذ حياتى حينئذ .. وعاد صوته الهادىء يسألنى « لماذا حاولت الانتحار فى ذلك اليوم ؟ ».

ـ « لأننى كنت خائفا » .

ـ « ألا تعرف أنه كما يخاف السجين سجانه يخاف السجان سجينه ؟ اننا كلنا جبناء ـ لقد صفقنا وهتفنا كلنا وكنا دائما خائفين وكان أولئك الذين صفقنا وهتفنا لهم خائفين منا . لهذا يقتلوننا ـ انهم يقتلوننا لأنهم يعرفون أننا خائفون منهم .. وأننا ضعفاء وجبناء » .. ووعدت بمحاولة مساعدتهم .

وفى المساء بدأت غارة روسية أخرى ظلت ثلاث ساعات . وكانت قاذفات القنابل الروسية الضخمة تطير على ارتفاع تسعمائة قدم حتى تكاد بطونها تحتك بسقوف المنازل .. وهم يضربون الثكنات العسكرية ومحطة السكة الحديدية ويلقون رجال البراشوت خارج المدينة وأصيبت احدى الطائرات فاضطرت للنزول فى غيط بجوار المدينة واسرعت انا الى هناك . رأيت الجنود الرومانيين يحاصرون الطائرة . ثم تقدم بعض منهم وحطم

بابها ثم خرجوا يجذبون احدى الفتيات الست ـ طاقم الطائرة ـ من شعرها الذهبى وقد ظهر الرعب على وجهها الملىء بالنمش وعيناها البارقتان وبقى ذراعها الأيمن مدلى بجوارها والدم يسيل منه . واخرجت فتاة اخرى من الطائرة وتجمع الجنود الرومانيون حولهن وهم يتحسسون أجسادهن ويمزقون ملابسهن ويضحكون .. بينما دخل آخرون فى الطائرة للبحث عن الأربع فتيات الباقيات داخل حطام الطائرة . وصحت على الجند « اتركوهن أيها القذرون » فضحكوا دون أن يلتفتوا الى ..

وفى طريق عودتى نادتنى ماريووارا خادمة نادى الجوكى من عند باب النادى ورجتنى ان أعود بها الى منزلها خارج المدينة فقد بدأ حظر التجول . قلت لها « اقضى ليلتك حيث أنت فان الجنود الرومانيين يعانون من العصبية ويطلقون النار بينما يصيحون (قف من انت) » ..

ـ « ولكننى يجب أن أعود الى منزلى يا سيدى الكابتن .. اتظنهم يطلقون النار علينا ؟ » .

ـ « لنرجو ذلك يا ماريو وارا .. لنرجو ذلك » .

وخرجنا من المدينة وبدانا نصعد الجبل ثم دوت صفارات الانذار مرة ثانية وبدأت المدافع المضادة للطائرات عواءها بينما قاذفات القنابل الضخمة تفرغ حمولاتها فوق المدينة .. أيتها الروسيات الصغيرات أما كان الأجدر أن تبقين فى منازلكن وتمضين الوقت فى التطريز ؟ .. ولكن ربما كانت منازلكن هى التى تضربها الطائرات الألمانية فى هذه الحظة .

وسمعنا من ناحية المدينة سيارات الحريق بصفيرها المزعج والجنود الرومانيون يصرخون « جنود المظلات .. جنود المظلات »

وهم يجرون بذعر ويطلقون رصـــاص بنادقهم ومدافعهم الرشاشة فى الهواء . ونظرنا فوق رؤوسنا فاذا بالرجال هابطين من السماء وقد انتفخت مظلاتهم فوق رؤوسهم .. ثم انتهت الغارة .

ودرت حول المنعطف الأخير فى طريق العودة واذا بالمدينـة تظهر امامى فجـأ كشعلة من النار . فجريت وانا اسـمع اصوات المدافع الرشاشـــة والمنازل الهاوية والأطفال الصارخين وارى من وقت لآخر ومضـات الانفجارات داخل المنازل .

وصلت الى ميدان يونيرى وانا الهث فرايت جماعات من جنود العاصفة يطلقون المدافع الرشاشـــة على جماعة كبيرة من الرجال والنساء والأطفال الذين يصرخون برعب هـائل ويجرون كقطيع مجنون ثم يسكنون فجأة وهم يسقطون وايديهم تتحسس الثقوب الصغيرة التى صنعها الرصـاص فى أجسـادهم .. وفى الشوارع الأخرى .. وجدت المئات يجرون كالأغنـام المرعوبـة ويجرى خلفهم قصابوهم وهم يطلقون النار أو يطعنوهم بالسونكى والسكاكين ويلقون القنابل اليدوية داخل المنازل خلفهم .. وحيث كان القتل كثيرا كنت أتزحلق فى الدماء بين صرخات الرعب والبكاء وضحكات المجانين ..

واخيرا وصلت الى دار القنصلية الايطالية فوجدت القنصل جالسا على عتبة الباب . قال لى « لقد أنقذت بعض هؤلاء المساكين المصـابين .. حاول أن تضمد جراحهم بينما أراقب البـاب » وبعد قليـل عدت للجلوس بجواره فقال لى « لقد اتبعوا واحدا للداخل وضربوه ثم حملوه معهم خارجا وانا أصيح وأحتج واصرخ ان هذه أرض ايطالية . وحينما قلت أننى سأبلغ موسـولينى بما حدث ضحكوا فى وجهى » .

ـ « انهم لام يضحكوا فى وجهك انت ـ بل فى وجه موسونيني . انهم يعرفون جيداً ان موسوليني يعوى كثيرا ولكنه لا يعض » .

ـ « انه سيعضني انا حينما يعرف انني آويت بعض المطاردين فى القنصلية » .

وجلسنا طوال الليل على عتبة الباب نسحب البولنديين الجرحى داخل القنصلية حتى جمعنا حوالى المائة منهم .

وبينما انا ذاهب الى منزلى عند الفجر مررت قرب المدافن فاذا بعربات اللورى الرومانية تحضر المئات من الجثث وتلقيها هناك . وقفت انظر هؤلاء الموتى حتى رفع حظر التجول وحضر الآلاف من سكان المدينة والجنود ايتشاجروا ويتصايحوا وكانهم فى سوق وهم يقتسمون ملابس القتلى واحذيتهم وحليهم ثم يلفظون أجسامهم العارية الملطخة بالدماء تحت أقدامهم ..

لقد نفذ الكولونيل لوبو خطته .

ـ ٤ ـ

قتل سبعة آلاف بولندى فى مذبحة جاسى تلك الليلة ...

قال فرانك « لقد كان ذلك عملا بربريا بعيداً عن التمدن . ولكن الرومانيين غير متمدنين . وانا كانسان وكألمانى وكحاكم عام لبولندة اعلن أستنكارى لتلك المذبحة .. ان الألمان يحتكمون دائما الى المنطق ويستعملون الوسائل البعيدة عن الغرائز الحيوانية ـ فحيث يستعمل الرومانيون الجزارين نستعمل نحن الأطباء . ان مذبحة كمذبحة جاسى لا يمكن ان تحدث فى المانيا ـ

ومع ذلك لن يبقى يهودى واحد فى المـانيا فى مدة قصـيرة .. اننا نرحل جميع اليهود الى بولندة ونضعهم فى معسكرات اعتقال يتمتعون بداخلها بحرياتهم وكأنهم فى جمهوريات حرة » .

ورفعت كأسى وأنا أقول « لتحيـا جمهوريات معسـكرات الاعتقال الحرة » فضحكوا جميعا وهم يشربون النخب ..

ثم مرت مدةطويلة لم أر فيهـا فرانك فقـد كانت القوات الروسية قد بدأت تنتصر وحضر هملر الى وارسو لبحث تطورات الموقف فى أوائل فبراير سنة ١٩٤٢ .. وبعد سفر هملر دعـانى فرانك للعشاء على مائدته وكان ضيف الشرف فى تلك الحفـلة بطل الملاكمة الألمـانى ماكس شملنج الذى قدمه مضيفنا فى خطبة قصيرة انهاها قائلا « لو كان المسيح قبضتان كقبضتى شملنج لمـا تمكن اليهود من صلبه » .

وتطور الحديث الى الدين والبولنديين فقال فرانك « ان الشعب البولندى مقتنع تماما بأن المسيح يقف دائما بجواره وان وجهة نظره كوجهة نظرهم فى المســائل السياسية وأنه يفضلهم على أى شعب آخر .. حتى الألمـانى » .

وقالت سيدة ارستقراطية بولندية « ان الحاكم العام صديق للكنيسة البولندية . انه حقـا حامى المسيحية فى بولندة » فقلت لفرانك « ولكننى كنت أعتقد أنك تواجه مشكلة بالنسبة للدين هنا كما سبق أن قلت لى » فضحك الحـاكم العام وقال « لقد كان ذلك قبل بدء انتصارات الروس .. ان الأسقف البولندى الآن يأتى الى منحنيا . انه يخشى الشيوعية أكثر مما يخافنا » .

وتطور الحديث الى الملاكمة والى الرياضة بأنواعها فسألت ماكس شملنج« هل سبق لك أن قاتلت ميتا ؟ » .

وتعجب الجميع لسؤالى بينما ضحك فرانك وهو يصيح « لايمكن .. لا يمكن أن يقاتل الانسان ميتا » فقلت له « لقد قاتل قنصل ايطاليا فى جاسى أكثر من مائة ميت » ..

... كان القنصل قد قص على كيف ان أحد أصدقائه ـ وهو محام يهودى يملك المنزل الذى يسكن فيه القنصل ـ قد لجأ الى القنصلية فى ليلة مذبحة جاسى ولكن الجنود الرومانيون تبعوه داخلها وضربوه وجذبوه الى الخارج معهم . وكان القنصل مهتم جدا بالبحث عن ذلك الصديق الذى لجأ اليه فى وقت شدته وخذله فقمنا أنا والقنصل وزائر ايطالى آخر من أعضاء الحزب الفاشستى ـ كان قد جاء الى جاسى لتمضية شهر العسل ـ قمنا بالبحث عن هـذا الرجل فى المستشفيات ووسط الموتى فى المقابر فلم نجده . وبعد ثلاثة أيام من البحث ذهبنا الى مدير الأمن للسؤال عنه فكان رد مدير الأمن علينا أنه لا يعرف عنه شيئا . قال له القنصل أن من المهم بالنسبة له العثور على ذلك الرجل أو على جثته اذ كان قد مات وهو الغالب . فأجابه مدير الأمن « ان وقتى ثمين ولا يسمح لى بالبحث عن الجثث . يكفينى الأحياء ومتاعبهم » فأجابه القنصل « من حسن حظك أن عدد الأحياء يقل بسرعة هائلة .. وقريبا ان شاء الله ستجد وقتا كثيرا للراحة » فأجابه مدير الأمن « اننى فعلا محتاج للراحة » .

ثم اقترح عليه القنصل أن يقتسما العمل وقال « سأبحث انا عن الجثة بين الموتى بينما تبحث أنت عن قاتليه بين الأحياء . ما رايك فى هذا ؟ » فأجابه مدير الأمن « يجب عليك أن تعثر على الجثة أولا ثم أبدأ انا فى البحث عن القتلة : فبدون الجثة لن تكون هناك جريمة قتل » .

وقفز زميلنا الايطالى صائحا « سنجد الجثة ونحضرها لك هنا فى مكتبك وسنحضر معها أيضـا السبعة آلاف جثة الأخرى انك وغد قاتل قذر » ـ وارتفع ذلك الرجل فى عينى فقد كان من السهل جدا على مدير الأمن أن يأمر باعدامه فهو لا يتمتع بالحصانة الدبلوماسية كالقنصل ولا تسنده الصحافـة وملابس الضباط مثلى .. ومع شدة احتقارى للفاشيين احترمت ذلك الرجل لأن الذى يعرض حياته لخطر الموت لا فى سبيل انسان بل فى سـبيل جثة آدمية لجدير بالاحترام .

وخرجنا من مكتب مدير الأمن نستأنف البحث . سمعنا أن عددا كبيرا من البولنديين قد نقلوا الى معسكرات اعتقال فى بلدة بودولويا فذهبنا الى هناك لنجد قطارا واقفـا بالمحطة وقد سمرت أبواب عربات البضـاعة من الخـارج ووقف الجنود الرومانيون يحرسونه حتى يصل جنود الصاعقة . ورفض الجنود فتح أبواب العربات بدون حضور جنود الصاعقة أو ناظر المحطة ، ذهبنا الى ناظر المحطة فى منزله فوجدناه يتناول طعام الغداء ولكنه قام بسرعة حينما عرف أن أحدنا قنصـل ايطاليا وعدنا للمحطـة وبدأ الجنود فى تحطيم الأخشاب المدقوقة على باب أول عربة ثم حاولوا فتحه ففتح بعد مجهود كبير .. فتح فجأة واندفعت جثث المساجين تسقط على القنصل وكأنها جبل ينهار .. فسقط القنصـل تحت كوم الجثث وهو يتصـارع معها لعله يخرج من بينها . وجرينـا اليه واخرجنـاه من بين الموتى . ثم صـعد الجنود الى العربـة وأخرجوا باقى الجثث فكان فى تلك العربة وحدهـا ١٩٧ ميتـا رؤوسهم المنتفخة الزرقاء تشهد بموتهم مختنقين .. وكان بباقى عربات القطار حوالى ألفـا جثة وجدنا بينها الرجل الذى كنا نبحث عنه ..

وأعرب ماكس الملاكم عن رغبته فى زيارة معسكر اعتقال وارسوا فصمم فرانك على أن نذهب كلنا لزيارته مباشرة .. سارت بنا السيارات فى وسط الليل حتى نزلنا عند باب المدينة الممنوعة واشار فرانك الى الحائط المبنى بالطوب الأحمر وقال « ان الخلفاء يدعون اننا نحيط معسكرات الاعتقال بحوائط من الأسمنت المسلح بها أوكار للمدافع الرشاشة وحولها الأسلاك الشائكة ولكننا فى الواقع نبنى هذه الحوائط لا لنمنعهم من الخروج من المدينة الممنوعة بل لنحدد لهم مكانا يعيشون فيه معا . وهذه الحوائط لا تمنعهم من الخروج فهم يحفرون الانفاق الضيقة تحت الأرض ليخرج منها الأطفال بحثا عن الطعام . كالفئران تماما . ان أكثر طعامهم يأتيهم بهذه الطريقة » .

وفجأة سألنا فرانك ان نلتزم الصمت . وظهرت رأس صغيرة عند فتحة أحد الأنفاق الخارجية فرفع أحد الحراس بندقية وأطلق رصاصة اخطأت رأس الطفل . واختفت الرأس مباشرة . واشار فرانك الى الحارس الذى اقترب منه فأخذ حاكم بولندة بندقيته وهو يقول له انك تعرف لا كيف تصيب الهدف » . ورفع فرانك البندقية وصوبها نحو فتحة النفق وهو يقول لابد أنه سيظهر مرة ثانية . ان الجوع يدفعهم الى المخاطرة .

وبدأت السماء تمطر ثلجا رقيقا .

الجـــزء الثـــالث

الكــــلاب

- ١ -

وقفت مع صديقى الكونت أوجستين دى فوكسا وزير اسبانيا المفوض فى هلسنكى أمام واجهة احدى المحلات التجارية فنظر الى قطع فراء الثعالب المعروضة وبجوارها قطع من فراء الكلاب .

وقال لى دى فوكسا ان نساء فنلنده تلبسن قبعات وقفازات من فراء الكلاب نظرا لارتفاع سعر فراء الثعالب .

كان ذلك فى شهر مارس ١٩٤٣ بعد عودتى من جبهة ليننجراد وكان أول يوم أقابل فيه دى فوكسا بعد طرده من ايطاليا حيث كان سكرتيرا للسفارة الأسبانية فى الفاتيكان بعد أن غضب البابا عليه لأنه ذهب الى جنازة قائد بحرى وهو سكران ووقف يرسم الصليب وهو يقول بصوت عال « باسم الشمال والجنوب

والشرق والغرب » وغضب عليه موسوليني لأنه سخر فى ملعب الجولف من سيدة اسمها الكونتيس ايدا شيانوا دون أن يعلم أنها ابنة موسوليني .

ثم ذهبنا الى المفوضية السويدية حيث كان الوزير المفوض قد دعانا للعشاء . جلسنا نأكل ونتحدث ونحن نراقب المدينة وهى تغطى تدريجيا بالثلج ونشرب النبيذ ونتبادل الأنخاب . وقال وزير السويد المفوض « ان من حق المحايدين أن يشربوا ما يحلو لهم من الأنخاب فى مدة الحرب .. فلنشرب نخب هزيمة انجلترا والمانيا » .

وصاح دى فوكسا « نعم . ولنشرب لنصرة السلام فى أوربا وهزيمة كل الدول المحاربة » ثم نظر الى واضاف « الا ايطاليا » فقلت له « لا . فلنشرب لنصر الشعوب الألمانية والانجليزية والايطالية » .

وسأل وستمان ــ الوزير السويدى ــ دى فوكسا « ولمن كنتم تشربون الأنخاب خلال الحرب الأهلية الاسبانية ؟ » فأجاب دى فوكسا « كنا نشرب نخب لاعبى كرة القدم أو نخب مصارعى الثيران فقد كان جمهور كرة القدم كلهم شيوعيين وجمهور مصارعات الثيران كلهم فاشيين » ..

ثم قص علينا دى فوكسا كيف أنه بمجرد عودة موظفى السفارة الانجليزية الى مدريد بعد نهاية الحرب الأهلية سأله سكرتير أول السفارة اذا كان ما سمعه حقا أن احدى قنابل الفاشيين قد اتلفت الثقب الخامس فى نادى الجولف بمدريد .. فسأل وستمان الوزير الأسبانى ضاحكا « وهل كان هذا حقا ؟ » فأجابه دى فوكسا « لا . لم يصب الثقب الخامس فى

ملعب الجولف بسوء والحمد الله . لقد كانت دعاية مغرضة فحسب » وقال وستمان « فلندعوا الله أن يحفظ للانجليز جميع ثقوب الجولف من ويلات هذه الحرب .

وفجاة سمعنا فى الميدان صوت أنين غريب كأنه بكاء حيوان يتألم . وقفنا ننظر من النافذة فرأينا أحد غزلان الرنة القطبية ـ جسده كبير كالحصان وقرونه طويلة متشابكة ـ وهو يتحرك ببطء ويجر خلفه ساقا مكسورة تسقط منها قطرات من الدم على الثلج اللامع تحت ضوء القمر . خرجنا من القنصلية السويدية واقتربنا من الغزال الجريح فحاول العدو بعيدا عنا ولكنه سقط على الثلج وهو يئن بصوت عال . ثم زحف الغزال حتى مدخل القصر الجمهورى عبر الحارسين الواقفين كالتماثيل حتى سكن فى الظل عند أول سلم القصر ونحن نتبعه خطوة بخطوة .

ونظر مدير مكتب رئيس الجمهورية من نافذة غرفته حينما سمع أنين الغزال فرآنا واقفين فاختفى ليظهر بالباب بعد دقائق وهو يقول لوستمان ودى فوكسا « مرحبا بالسادة الوزراء لقد أيقظت رئيس الجمهورية حالما رأيتكما اذ لابد أن هذه زيارة رسمية عاجلة ما دامت الساعة الواحدة صباحا » فأشرنا نحو الغزال الجريح وقال وستمان « لقد جئنا معه » .

وظهر ريستورايتى رئيس جمهورية فنلندة على السلم ونزل الينا مسرعا . وما أن عرف الموقف حتى أرسل مدير مكتبه ليطلب طبيب قسم الخيالة بالجيش وعربة اسعاف لنقل الغزال . وسألنى دى فوكسا هامسا « أترى يلبس رئيس الجمهورية أيضا قفازا من فراء الكلاب ؟ » فقلت له « اسأله هو لا تسألنى »

فاستدار يسأل رئيس الجمهورية الذى بقى صامتاً وهو يبحث عن المغزى السياسى للسؤال .

وتصادف مرور ممثلى البرازيل والدانمرك وفرنسا (حكومة فيشى) امام القصر وهم عائدون من حفلة فرأوا رئيس الجمهورية واقفا معنا فظنوا أن هنــاك مسألة سياسية هامة وانضموا الينا . وسرعان ما أقبل سفير رومانيا بملابس النوم وفوقها البالطو ومعه الملحقان السياسيان بالسفارة وبعد قليل جاء ممثل كروانيـا ثم المــانيا .

ورفع دى فوكسا ذراعه يحيى سفير المــانيا بالتحيــة النازية فهمس ممثل حكومة فيشى فى اذنه « وانت ايضا ترفع ذراعــك لتحية الألمــان ؟ » فأجابه دى فوكسا « هناك آخرون حيوا الألمــان برفع الذراعين معا » .

ومرت مومس سكرى أمام القصر فلفت نظرها التجمع فدخلت واخترقت حلقة الدبلوماسيين وحينما رأت رئيس جمهوريتها جالسا على الثلج بجوار الغزال يفحص ساقه ضحكت وهى تقول « بركيلى » فاحمرت وجوه الفنلنديين خجلا وأخرجوها بسرعة . واخيرا حضرت ســيارة الاسعاف وبها الطبيب ونقل الغزال الى مستشفى قسم الخيالة للعلاج . ثم سلم رئيس الجمهورية على السفراء وانسحب ..

عدنا الى القنصلية السويدية وجلسنا نشرب الخمر فى صمت لا يقطعــه الا عواء الكــلاب من وقت لآخر .. فتذكرت كــلاب أوكرانيا .. كلاب الدنيبر الحمراء ..

- ٢ -

كان المطر قد استمر أياما حتى صارت أرض أوكرانيا كتلة من الطين الأسود وصار الجو مشبعا برائحتـه الخصـبة وفتحت ازهار عباد الشمس عن قلوبها لتسقط حبوبها على الأرض الطيبة حتى فرغت وصارت كعيون العميان . وكان الجنـود الألمـان العائدون من الميدان ـ يكسـوهم الطين وذقونهم طويلة وعيونهم جوفـاء كعبـاد الشـمس ـ يلقون ببنادقهم فى الطين ثم يلقون بأجسادهم المتعبة بجوارها .

كانت الانتصارات الروسية قد بدات وتغير الألمـان كثيرا عن ذى قبل .. فقد كان الزحف الألمـانى فى خلال الشهور الأولى من الحرب هناك ـ فى يونيو ويوليو واغسطس ـ يتقدم باستمرار بينمـا قوات المـارشال بودينى الروسى تتقهقر نحو نهر الدون تاركة فرقا صغيرة من فرسان القوازق أو من السيارات المصفحة الخفيفة (وكان الألمـان يدعونها الخيول الحديدية) التى يقودها التاتاريون والتى كانت تتبع أسـلوب فرسان القوازق فى الهجوم الخاطف على جوانب الجيش المتقدم لطعنه بشدة ثم الانسحاب بسرعة . ولكن مع تقدم القوات الألمـانية خلال الخريف قلت فرق الخيول الحديدية ، وكان الألمـان يتساءلون أين المـارشال ودينى وجيوشـه ويقولون « آه . انه ينتظرنا عند نهر البـاج » ثم « عند نهر الدنيبر » ثم « عند نهر الدون » ولكنهم كانوا يتقدمون ولا يجدون اثرا للقائد الروسى الا اسطوانة « مارش بودينى » فى منازل الفلاحين المهجورة .. وكانت صفوف الأسرى الروس

الطويلة تمشي وخلفها حراسها يتضاحكون حتى يصلوا الى احدى المزارع التعاونية حتى يعطوا « امتحان القراءة » .

وكنت قد رأيت احدى « امتحانات القراءة » هذه فى مزرعة نيمر وفسكوى التعاونية . وقف طابور الأسرى وخرج اليهم أحد الضباط الألمان وقال لهم انه سيجرى لهم امتحانا للقراءة من نجح فيه يعطى عملا مكتبيا مريحا فى احدى معسكرات الاعتقال أما الجهلة الذين يرسبون فيه فان الأعمال الجثمانية الصعبة توكل اليهم . ثم دعى الضابط الألمانى الأسرى خمسة خمسة ليتقدموا واعطى لكل منهم نسخة قديمة من جريدة روسية وصاروا يقرأون .. والذين لا يعرفون القراءة جيدا يحاولون جهدهم القراءة بعناية بينما يفصل الألمان المثقفين عن غير المثقفين وقد بدا الزهو على وجوههم . وطابور الجهلة بالقراءة وقد بدا الحزن على وجوههم ثم أمر الضابط الألمانى طابور المثقفين بالانتظام فى وضع عسكرى . ثم صاح عليهم « لليمين در » فداروا . ثم صاح « للأمام سر » فساروا للأمام عبر حائط المزرعة . ثم صاح الضابط « وقوف » فوقفوا . ثم صاح « لليسار در » فداروا يواجهون الحائط ثم صاح الضابط « اضرب » فحصدهم جنود العاصفة بالمدافع الرشاشة . واستدار الضابط الى وقال « ان العمال والفلاحين الذين يعرفون القراءة والكتابة خطرون .. انهم شيوعيون قذرون » .

كان هذا قبل بدء هزيمة الألمان حينما بدأ ذلك الخوف الأبيض فى الظهور حول عيونهم وبدأوا يقتلون عددا أكبر من الأسرى الروس ويحرقون القرى التى يمرون بها ويشنقون الفلاحين الروس على قاعدات التماثيل الرخامية فوق تماثيل ستالين ولينين البيضاء الملقاة فى الوحل . ثم بدأوا يقتلون الكلاب .

اعتقدت أول الأمر ان مرض الكلب قد بدأ بين الجند ولكننى سرعان ما ادركت انه لا يمكن لأى مرض أن يرعب الألمـان الى هذا الحد .. فقد بدأ الألمـان يبحثون عن الكلاب بمجرد دخولهم القرى ـ قبل أن يبحثوا عن اليهود !! ـ وحالما يرون كلبـا يطلقون عليه قنبلة يدوية وكان صـوت الحراس فى الليل وهم يسألون « من هناك ؟ » حينما يسمعون حركة ما كان به رنة رعب خاصة كأنهم يخشون ان لا يجيب على سـؤالهم احد أن يكون مصدر ذلك الصوت احد تلك الكلاب ذات الشعر الأحمر والعيون الصفراء .. ثم عرفت السبب .

ذهبت لمراقبة سير معركة فى احدى سهول أوكرانيا برفقـة القائدالألمـانى الجنرال فون شوبرت . وقفنا فى برج المراقبـة ننتظر بزوغ الشمس . ولم يكن يعلم الجنرال حينئذ انه سيقتل بعد يومين حينما تمس طائرته لغما فى مطـار كييف يوم احتلالها. كان يقف بجوارى وهو يفحص ميدان المعركة بمنظـاره المقرب ويبتسم فى ضـوء القمر الشاحب . ثم ظهرت السيارات المصفحة والدبابات خارجة من الأحراش وتفرقت فى السهل على شـكل مروحة ولم يكن هنـاك اى اثر للروس وكأنهم قد تركوا السهل غنيمة للألمـان . ثم فجـأة بدأت صيحات الرعب تمزق السكون « الكلاب .. الكلاب » وحمل الريح عواء الكلاب وهى مندفعـة بسرعة كبيرة من آخر السهل وقد بدت كنقط حمراء صغيرة عند الأفق . واستدارت الدبابات بسرعة تطلق نيرانها على الكلاب بينما بدأ بعض رجال السيارات المصفحة يقفزون من سياراتهم ويجرون

بعيدا عنها . ثم انفجرت سيارة مصفحة ثانية وثالثة وتوالت انفجارات السيارات المصفحة والدبابات بين صرير المدافع الرشاشة الموجهة الى الكلاب .. كان الروس قد عودوا هـذه الكلاب على الأكل تحت السيارات المصفحة والدبابات موضـع طعامها دائما هناك وكانوا يجيعونهم لمدة يوم ثم يربطون حولهم الألغام واقطابها الى أعلى كأنها « ايرليين » صغيرين واطلاقها فى ميادين المعـارك فتجرى الكلاب الى السيارات المصفحة والدبابات الألمـانية وتدخل تحتها بحثا عن الطعام فيلمس قطبى اللغم باطن السيارة أو الدبابة الفولاذى ويسرى التيار الكهربائى فى اللغم فيفجره .

ومسـح الجنرال فون شوبرت عرق جبهتـه وهو يقول « ان كلابهم أيضا تحاربنا » .

الجـــزء الرابـــع

العصـــــافير

- ١ -

قابلت الأميرة لويزفون بروش حفيدة القيصر ولهيلم الثانى خارج محطـة بوتسدام وكانت واقفة بجوار دراجتها وهى تحاول اخفاء ثقب فى ردائها بيدها . وسرنا معا قليلا وانا أجر دراجتها . هنأتها بخطوبتها ودعوتها لقضـاء شهر العسل فى منزلى بجزيرة كابرى نظرا لخلوه فقد كنت مسافرا الى فنلندة بعد ذلك فظهرت دمعـة فى عينهـا وهى تشـكرنى وتقول « لقد سحبوا جوازات السفر منا وحددوا اقامتنا فى ليتزنسى حتى أننا لا يمكن أن نذهب بعيداً بدون تصريح خاص » ..

ودعوت لويز الى شرب القهوة فى احدى المحـال الصغيرة جلسنا على مائـدة بجوار جنـديين المـانيين عيونهما معصـوبة ترافقهما ممرضتهما . ونظرت الأميرة الى الجنـديين وسـألتنى « كم يبلغ سنهما فى رأيك ؟ انهما يبدوان كغلامين صغيرين » فقلت

لها « من حسن حظهما أن الحرب لم تأت عليهما تماما . ان الحرب تأكل الرجـال .. تمضـغ أذرعتهم وسيقانهم وعيونهم وتلفظ الموتى منهم » .

وقالت لويز « اننى أفكر طول الوقت هل كان لعائلتى يد فى هذه الحرب ؟ هل تقع مسئوليتها علينا » فقلت لها « من الناس من لا تقع بعض مسئولية هـذه الحرب عليهم ؟ أنا لست من عائلة مالكة مثلك ولكننى أحس أننى الى حد ما مسـئول عما يحـدث الآن فى أوربا » .

ثم صمتنا قليلا وعادت الأميرة تنظر الى الجنديين الألمـانيين ثم قالت « ليست فى العالم حياة أبشع من حيـاة العميـان » فقلت لها « بل هنـاك .. ان حياة أولئك الذين يلبسون عيونا زجاجية أبشع من حياة العميان . وأبشع من تلك أيضا حيـاة أولئك الرجال الذين عادوا من جبهة سمولنسك » ...

... رأيتهم فى قبوة أدروبيسكى فى وارسو . وكانوا يجلسون بجوار مائدتى .. مجموعة من الجنود الألمـان ومعهم ممرضاتهم وهم يحدقون بعيونهم تحديقـا بينما تنقبض وتنفرج حدقاتهم فتعطى لوجوههم الخاليـة من التعبير تعبيرا مخيفا غامضـا . جلست أراقبهم فلاحظت أنهم لا يرمشون فلا تنزل جفونهم لتمر على عيونهم من وقت لآخر . ولم يكونوا من العميـان لأن بعضهم كانوا يقرأون الصحف والآخرون يراقبون فرقة الموسيقى والناس حولهم . وفجـأة انتابتنى رعدة شديدة حينما أدركت أن عيونهم ليست لها جفون وتذكرت أنه سبق لى أن رأيت كثيرا من الجنود بلا جفون بين العائدين من سمولنسك على رصيف محطة منسك فقد كان الشـتاء فى الجبهة قارصـا وكان الآلاف من الجنـود العـائدين قد جفف البرد الشـديد جفونهم وآذانهم وأنوفهـم

واصابعهم واعضاءهم التناسلية فسقطت كأنهـا قطع من الجلد الميت .. ونظرت وأنا أرتجف الى حدقـات عيون الجند وهي تتقلص محـاولة أن تحمى نفسها من الضوء الشديد .. محاولة ان تجد لحظـة من الراحة . فكرت فيهم وهم نائمون وعيونهم مفتوحة . فالليل هو الجفون الوحيدة والباقية لهم .. وأدركت ان مصيرهم جميعا الى الجنون ..

وصاحت لويز « كفى . أرجوك . ليس من حقك أن تزيد من آلامى » فقلت لها « سأقص علّيك الآن قصة رقيقة .. ففى الحرب أيضـا قصص جميلة وانسانيـة وعذبـة كأنها أسـاطير للأطفـال » ..

.. كنت فى نابولى فى بدء الحرب حينما كانت الطـائرات الانجليزية قد بدأت تضرب المدن الايطالية . وذهبت لتنـاول العشاء على مائدة صـديقى سانازارو الذى يسكن فى منزل صغير له حديقة كبيرة على قمة جبل نابولى . وكنا جلوس فى الحديقـة ننظر الى القمر الكبير ونتمتع بالسكون بعد أن نام طفلاه حينمـا ظهرت زوجة صديقى وقالت له « ان السماء صافية الليلة والقمر كبير وغالبا ستحضر الطـائرات » فقام سانازارو وعاد بعد قليل يحمل بعض اللعب الصغيرة وعلب الحلويات التى ألقاها بين الشجر وعلى الحشائش . سألته ماذا يفعل فقـال لى أن طفليه كانا يخافان الغارات الجوية جدا وتنتابهما الحالات العصبية خـلالها ولذا فكر هو وزوجته فى حل لهذه المشكلة .. فحينما تدوى صفـارات الانذار يسرع هو وعائلته الى المخبأ وهو يقول لولديه « لقد جاءت الطائرات الانجليزية لتلقى لكما بالهدايا » ويصيح الأطفـال فرحين « أترى سيلقون لنا سيفا صغيرا ؟؟ .. أترى سيلقون لنا بعض الحلويات ؟؟ » وما تكاد الغـارة تنتهى حتى يسرع الطفـلان الى

الحديقة لجمع اللعب الصغيرة التى يجدانها بين الأشجار وهما يصيحان فرحا كلما عثرا على احداها ..

وقالت لويز « انها قصة جميلة جدا » فقلت لها « .. سأقص عليك الآن قصة امتحان القط » ..

.. كنت قرب بلدة بانكيفو اليوغوسلافية مع بعض رُجال حرس الصاعقة الألمان .. وكانوا ينتظرون صدور الأمر لهم بمحاولة عبور نهر الدانوب .. وكان الرصاص يدوى من حولنا والقنابل تنفجر أمامنا وخلفنا ـ ونظرت الى أقرب الجند الى فاذا به صبى فى الثامنة عشرة ذو عيون زرقاء صافية وشعر ذهبى جميل .. وبدأت أتحدث معه فى الموضوعات المختلفة ثم تكلمنا عن الفرق بين الجيش العادى ورجال حرس الصاعقة فقال لى أن جنود الصاعقة يمرنون بحيث يصيرون لا يتأثرون لآلام الناس . ففى الشهر الأول من تمرينهم مثلا يطلب من كل منهم أن يمسك بيده اليسرى قطا من خلف عنقه وبينما يدافع القط عن نفسه بمخالبه يبقر الطالب عينيه بمطواة صغيرة .. وكان هذا تمرينا لينفذه رجال الصاعقة فى الأعداء فيما بعد ..

وغرست لويز اظافرها فى ذراعى وهى تنظر برعب الى الجنديين ذوى العيون المعصوبة الجالسين بجوارنا . قلت لها « اغفرى لى يا عزيزتى ان هذه الذكريات ترعبنى أيضا ولكننا يجب أن لا نتغافل عن الحقائق .. يجب أن نفهم جيدا نفسية هؤلاء الرجال الذين يحاربون باسمنا .. يجب أن نعرف اننا ـ لأننا علمناهم أن يبقروا عيون القطط ـ فلن يتسنى لهم العيش الا اذا مروا بنفس هذه التجربة .. اذا مروا بامتحان القطط وهم متخذين مكان القطط » . وزالت نظرة الرعب من عينى الأميرة . وجلست بجوارى تنظر الى المائدة فى سكون ثم

سألتنى « كنت قد ذكرت ذوى العيون الزجاجية .. فما هي قصتهم ؟ » ..

... كنت فى شتاء ١٩٤١ بجوار بلدة بولتافا فى أوكرانيا وكنت أركب بجوار ضابط سرية مدفعية صغيرة ونحن نتقدم نحو خطوط القتال . دخلنا احدى القرى الروسية المهجورة وبحث الجنود الألمان فيها عن أى انسان أو أى شىء صالح للأكل فلم يجدوا فأصدر الضابط أمره للسرية بأن تستمر فى سيرها . ولم نكد نبدأ الحركة حتى أطلقت رصاصة مرت بجوار راس الضابط وتلت تلك الرصاصة رصاصات أخرى كثيرة فجرينا الى خارج القرية وقد سقط من السرية بعض الجنود وحاصرت القرية باقى السرية وبدأت تدكها بالمدافع حتى تحطمت أغلب دورها وانهارت وقد اشتعلت بها النيران . وبعد قليل خرج من بين الدخان والنار بعض القناصة الروس وقد رفعوا أيديهم مستسلمين وكان أغلبهم من الشيوخ والنساء . وأمر الضابط باعدامهم فأعدموا ثم استعدت السرية للسير مرة اخرى .. ولكنها لم تكد تبدأ الحركة حتى أطلقت رصاصة فأصابت أحد الجنود. فأمر الضابط بمحاصرةالقرية ودكها بالمدافع مرة أخرى . وأستمرت طلقات تلك البندقية الواحدة تدوىمرة بعد أخرىالى أن سكتت وخرج من بين الدخان والنار غلام روسى فى الحادية عشرة من عمره رافعا يديه . نظر الضابط الألمانى طويلا الى الغلام ثم قال لى بالألمانية « انه فى سن ولدى رودلف . انه طفل وأنا لم أحضر لروسيا لقتل الأطفال » ثم استدار للغلام وسأله بالروسية « لماذا أطلقت النار على جنودى ؟ » فأجاب الروسى « انك تعلم السبب . لماذا تسأل ؟ » فسأله الضابط « هل تعرف ما هم الألمان ؟ » فأجابه الطفل « ان كل ما أعرفه هو انك واحد منهم » فاغتاظ الضابط وأمر باعدامه . ولكنه سرعان ما نادى الغلام الروسى مرة أخرى

وقال له « اننى لا اريد ان أؤذيك فانك طفل وانا لا أقتل الاطفال .
ولكنك أطلقت الرصاص على جنودى وجرحت منهم اثنين .
أتعلم بالصواب ماذا سأفعل بك ؟ سأسألك سؤالا اذا أجبته
سأعفو عنك واذا اخطأت سآمر بقتلك . ان احدى عينى مصنوعة
من الزجاج ولكن لا يمكن لأحد أن يميزها عن عينى السليمة .
فأيهما هى العين الزجاجية » ؟ فأجاب الطفل بدون تردد « هى
اليسرى » فسأله الضابط متعجبا « وكيف عرفت أن عينى اليسرى
هى الزجاجية ؟ » فأجابه الطفل « لأن بها قليلا من الرحمة » ..

وكانت الأميرة لويز تبتسم فى سعادة وهى تستمع الى القصة
وحينما سكتت سألتنى « انها حقا كقصص الأطفال الخرافية ..
ولكن ماذا حدث للطفل بعد ذلك ؟ » فقلت لها « لقد قبل الضابط
وجنتيه ثم ألبسه ملابس موشاة بالفضة والذهب واركبه العربة
الملكية يجرها ثمانية من الخيل الأبيض وأرسله فى موكب يضم
فرقا موسيقية وحرس شرف مزركش الثياب الى برلين حيث
استقبله هتلر خارج المدينة وركب بجواره حتى القصر بين الجماهير
الهاتفة المبللة ثم زوجه لابنته وعاشا سعيدين وانجبا كثيرا من
الأطفال » .. فضحكت لويز وهى تقول « لقد فهمت » فقلت لها
« نعم .. ان لكل ألمانى عينا من الزجاج بها قليل من الرحمة » .

– ٢ –

قالت لويز « ان العيون تذكرنى دائما بالعصافير الصغيرة ..
انها تتحرك كالعصافير » فقلت لها « أما أنا فالعيون تذكرنى
بأسماك المحار الهلامية » ..

... بعد يومين من نهايــة الحرب فى يوغوسلافيا واعــلان جمهورية كرواتيا الحرة هنــاك فى ابريل ١٩٤١ سافرت من بلجراد الى زاجرب لآخذ حديثا صحفيا من أنتى بافليك الحاكم الجديد . توقفت فى عدة مدن طوال الطريق وكنت حيثما ذهبت أرى أعلام الجمهورية الجديدة بألوانها الثلاثة ـ الأحمر والأبيض والأزرق ـ وصــور بافليك الكبيرة تغطى الحوائط . كانت عينــاه السوداوان الكبيرتان تنظران الى من كل مكان تحت جبهته الصلبة وكان له فم متسع وشفتان غليظتان وانف كبير ولكن اكثر ما يسترعى النظر فى صورته هو كبر حجم أذنيه اللتين كانتا تتدليان حتى منتصف خديــه .

وقابلت بافليك فى زاجرب فاذا بأذنيه اكبر مما رســمها الفنان فى صــوره . كان يجلس أمامى بوجهه الحنون ويجيب على أسئلتى بتؤدة وبصــوت رخم عذب وهو يشير بأصابعه الغزيرة الشعر وهو يشرح لى سياسته وأفكاره . وانهى حديثــه قائــلا « سأحكم شعبى بالعدل والرحمة » .

واقترح على بافليك أن أرافقه فى احدى جولاته بمقاطعــات كرواتيا فرافقته فى جولته بعد يومين . خرجنا من زاجرب بسيارته حوالى الفجر بدون أية حراســة . وقضينا يوما ممتعا فى القرى وسط الطبيعة الخلابة وازداد اعجــابى بذلك الرجــل الطيب المتواضع الذى يتبسط فى تصرفاته ويرق فى كلماته ويتواضــع فى معاملته للفلاحين والفقراء . وسمعت طول اليوم صــوته العذب الرزين وهو يتناقش مع الفلاحين ويتبادل معهم الحديث الأخوى فأحببت رنة كلماته وبساطة شخصيته .

ومرت عدة شهور .. وفى أواخر صيف ١٩٤١ كنت عائدا من الجبهة الروسية وكنت مريضــا ومرهقا وقد تمزقت ثيــابى

كلها واتسخت بالطين والدماء . نزلت فى بوخارست عاصمة رومانيا لأقضى عدة أيام للراحة ولكن فى نفس يوم وصــولى اتصــل بى أحد سكرتيرى مجلس الحــاكم وقال لى أن نائب رئيس المجلس يريد أن يرانى فى الحال .

ورحب بى المــارشال ميهاى انطونسكو وقدم لى قدحا من الشاى وجلس يتحدث الى بكبرياء وصوت عال وهو يشير بذراعيه ويراقبنى عن كثب . كان متأنقا فى ملبسه ووجهه وسيم غير أن عينيه كانتا أشد خبثا من عيون الثعابين . وبعد أن فرغت من شرب الشاى قال لى ميهاى أنطونسكو « اننا غير راضيين عنك . ان مقالاتك عن الحرب فى الجبهة الروسية موضع نقد شديد هنا. انك ما عدت فى الثامنة عشرة يا مالابارته ولا يمــكنك أن تستمر دائما فى تمثيل دور الولد الشقى . اننى أعلم أنك قضيت خمس سنوات فى سجون ايطاليا حتى الآن . أليس هــذا كافيا ؟ اننى انصحك بأن تكون أكثر حذرا . اننى أحترمك كثيرا لأنك صحفى كفء ولكن ليس من حق الصحفيين الحكم على الحوادث أو التكهن بنتائجها . لبس من حقك أن تقول أنك ترى أن روســيا ستنتصر فى هذه الحرب لأن هــذا لن يحدث . ان روسيا ستنهار » . فقاطعته قائلا « انها ستنهار على رؤوسكم » فنظر الى صامتــا لبضع دقائق ثم قال « اننى أنصحك بمغادرة بوخارست بأسرع ما يمكنــك » .

وغادرت بوخارست فى اليوم التالى الى يوغوسلافيا وحينما علم بافليك أننى فى زاجرب أرسل الى يستدعينى لمقابلته ..

دخلت غرفة مكتب بافليك فارتطمت بمكتبه الذى كان قد نقله قريبا فى مواجهة الباب وضحك بافليك وهو يقف ليصــافحنى وقال « هذه طريقة جديدة ابتدعتها لآخذ زائرى على غرة فاذا كان

أحدهم يضمرلى شرا شلت المفاجئة تفكيره لحظـات تكفى للقبض عليه .. ان الطريقة التى يستعملها هتلر وموسولينى .. بترك مسافة كبيرة بين الباب ومكاتبهم لا تعجبنى » وجلسنا نتحدث . كان صوته هادئا كالعادة وكان يتـكلم بنفس البطء والرزانـة والتواضع ولكننى لاحظت بعض القلق فى وجهه فقد كانت ثورة الشيوعيين ضده قد بدأت فى بعض أنحـاء كرواتيا . وسألته عن الثورات فقال أن رجاله قد بدأوا فى اخمادها والضرب على أيدى محدثيها ثم قال لى « أنظر » ورفع الغطـاء عن سلة كانت على مكتبه فظهرت ممتلئة بكتل هلامية صغيرة تشبه المحـار . وقال لى وهو يبتسم بدعة « انها هدية من رجالى .. أربعون رطلا من العيون الآدمية » ..

- ٣ -

نظرت الى الأميرة لويز فرأيت الرعب يملأ عينيها .. وتذكرت فجأة فتيات سوزوكا ...

... كانت الفتيـات يهربن من القرى ويختبئن بين حقول القمح والأدغال خوفا من الألمـان .. لم يكن يخفن من خنـاجز الألمـان أو مدافعهم الرشاشـة ولكنهن كن يرتعـدن خوفـا من أيديهم واصابعهم .. تلك الأيدى القاسية التى تتحسس أجسامهن تحت ملابسهن وتلك الأصابع الخشنة التى تمزق الأجزاء الحساسة من أجسادهن .. فكن يختفين فى حقول القمح والأدغـال كلمـا سمعن صوت عربات الجنود أو الدبابات أو الخيـل تقترب من القرى أو المدن ويبقين مختفيات هنـاك يعشن كالحيوانات حتى يرحل الجنود عن البلدة .. وفى بعض الأحيان كان الجنود الألمـان

يرون أعواد القمح وهى تهتز فيصيحون « الروس .. الروس » وهم يفرغون مدافعهم الرشاشة فى الحقول وفى بعض الأحيان كانوا يدخلون للبحث عن الفتيات بين القمح فيسيرون متفرقين وأصابعهم متوترة على أزندة بنادقهم أما الفتيات فترتجفن خوفا وهن تكتمن أنفاسهن . ثم تعلو صرخة احدى الفتيات ثم ثانية وثالثة بينما تحاول احداهن الهرب ثم تختلط صرخات الفتيات بضحكات الجنود . وبعد قليل يسحب الجنود الفتيات الباكيات ممزقات الشعر والملابس خلفهم نحو المدينة أو القرية حيث يوجد زملاؤهم الكثيرون .

وفى يوم من الأيام قرر القسم الصحى التابع للفرقة الحادية عشرة فتح دار للدعارة للعسكريين فى بلدة سوروكا .. ولما لم يجد القسم الصحى بالبلدة غير العجوزات والمشوهات فقد أرسل داوريات خاصة من الجنود للبحث عن الفتيات المختفيات فى حقول القمح والذرة وفى الأدغال . وبعد مدة قصيرة افتتحت دار الدعارة فى حفل عسكرى بسيط وتفقد قائد الفرقة الحادية عشرة الجنرال فون شوبرت المنزل والمعدات الصحية والفتيات العشرة الصغيرات اللاتى كن يرتعدن وقد انتفخت عيونهم من كثرة البكاء وهن يقفن فى حراسة جنود الصاعقة .

مررت فى سوروكا بعد شهر واقترح على ضابط ألمانى أن أذهب الى دار الدعارة للعسكريين فرفضت . فضحك وهو يقول لى « ان الفتيات هناك لسن بومسات . انهن من عائلات طيبة ويبدون كأنهن طالبات فلماذا لا تذهب ؟ » قلت له « لأنهن لسن بومسات ولأنهن لا يبعن اعراضهن برضاهن أو حتى لحاجتهن بل لأنهن يرغمن على ذلك » فقال لى « بل يجب أن تذهب . انك لن تدفع شيئا من النقود ــ فهذه خدمة مجانية للجنود ــ والفتيات

نظيفات جدا ـ فهن يستعملن الوسائل الصحية للوقاية من الأمراض كما يغيرون بفتيات جديدات كل أسبوعين » فسألته « واين تذهب الفتيات القدامى ؟ » قال « ربما لمنازلهن أو ربما لمعسكرات الاعتقال أو المستشفيات » .

وبعد أيام ذهبت الى دار الدعارة للعسكريين . كانت الساعة قد قاربت منتصف الليل حينما دفعت الباب ودخلت فوجدت ثلاث فتيات جالسات حول مائدة صغيرة مغطاة بشال برتقالي وفوقها فونوغراف يدار باليد وبعض زجاجات البيرة . وقالت الفتيات « مساء الخير » ووقفت احداهن لتدير الفونوغراف ولكنني أوقفته . وسارت الفتاة حتى أريكة بحذاء الحائط جلست عليها فجلست بجوارها . ونظرت الفتاة الى ملابسى العسكرية قليلا ثم قالت لى « انك لست ألمانى » فقلت لها « بل ايطالى » فقالت « ان ايطاليا بلاد جميلة . كم بودى أن أرى فينيسيا » وقالت فتاة اخرى وهى تتثاءب « اذا لم تكن بحاجة الى اسمح لى بالذهاب الى الفراش » فقلت لها « طابت ليلتك » .

وسألتنى الفتاة الجالسة بجوارى ـ وكان اسمها سوزانا ـ « هل تحب الألمان ؟ » قلت لها « لم لا ؟ وانت ؟ » فضحكت ضحكة ساخرة طويلة وهى تقول « اننى أحبهم كثيرا . ان كل عشاقى من الألمان . ويعجبنى فيهم انهم يعاملون الفتيات بأدب بالغ » ثم ظهرت دمعة فى عينها فقالت لها فتاة اخرى « لماذا تبكين ؟ لقد بقيت لنا أيام قليلة نعود بعدها الى منازلنا » فقالت سوزانا « نعم أيام قليلة » .

وخلعت سوزانا حذاءها لتضع قدمها على كرسى فلاحظت آثار جروح ملتئمة فى قدميها وساقيها وخشيت أن أسألها كم

يوما قضت مختبئة فى الأحراش وبين حقول القمح تتغذى بجذور النباتات وهى تجرى يوما وراء يوم حتى عثر الألمان عليها واحضروها الى ذلك المنزل .. ولكنها قالت لى انها ابنة أحد التجار وأنها تلميذة بمدرسة فرنسية وقالت أن من بين زميلاتها اربع طالبات بالمدارس الثانوية العالية واحدة ابوها طبيب والأخرى ابنة مهندس . ثم سألتنى سوزانا « أترى يرسلوننا الى منازلنا بعد هذا ؟ » فقلت لها « لا أعلم . هل تعتقدين أنهم سيرسلونكن الى منزل آخر مثل هذا ؟ » فضحكت وهى تقول « لا . لقد رأيت الفتيات اللاتى كن هنا قبلنا . قد خرجن من هذه الدار مريضات محطمات كالأشباح التى لم يعد لها نفع لأى رجل . لقد اضطر الجنود الى اسناد بعضهن وهن يصعدن فى سيارات النقل » وسألتها بحياء كم رجلا زارها فى ذلك اليوم فقالت « ثلاثة وأربعون جنديا وستة من الضباط .. أن الاجهاد البدنى يقتل فينا ما تبقى من شعور بالتقزز من هذه الحياة » وتثاءبت سوزانا فودعتها وخرجت ..

وسألتنى الأميرة اويز « هل رايتها مرة أخرى بعد ذلك ؟ فقلت لها « لا فقد ذهبت الى الجبهة وحينما عدت كانت مجموعة جديدة من الفتيات فى دار سوروكا للدعارة . أما المجموعة القديمة فقد أخذهن جنود الصاعقة حتى النهر وأعدموهن هناك . « لقد خرجن من هناك مريضات محطمات كالأشباح التى لم يعد لها نفع لأى رجل » وسألت لويز « وهل كن يعرفن أنهن سيعدمن ؟ » فقلت لها « نعم . لقد كان كل الناس يعرفون ذلك . ولكنهن كن يحاولن نسيان هذه الحقيقة ويحلمن بأنهن سينجين من الموت » .

الجـــزء الخـــامس

الغـــزلان

- ١ -

رفع كارلوهيليا حاكم لابلاند كأسه وقال « نخب صحتنا » . وكنا جالسين حول المـائدة نتناول طعام العشاء فى سراى الحـاكم فى روفانيمى عاصمة لابلاند فى منطقة القطب الشـمالى . وقـال الحاكم « ان حدود المنطقة القطبية تمر تحت هـذه المـائدة » فرفع الكونت دى فوكسا ممثل اسبانيا فى فنلندة طرف غطـاء المـائدة ونظر تحتها وضحك الجالسون .

كان الوقت قد بلغ منتصف الليل وشمس الصيف القطبية البرتقالية اللون تغمرنا بأشعتها الشاحبة البيضاء . كنا جلوسا حول المـائدة لأكثر من ست ساعات ونحن نتحدث ونشرب الخمر ونتبادل الأنخاب . وملت على دى فوسكا وقلت له « يحسن بك أن لا تشرب أكثر مما شربت الى الآن . تذكر أنك ممثل أسبانيا » فصاح بى « وما دخلك انت ؟ ولمـاذا تجلس انت الذى لا يمثـل

احدا عن يمين الحاكم العام واجلس انا ممثل اسبانيا عن يساره ؟ » وكنا قد جلسنا دون نظام معين أو مراعاة للبروتوكول السياسي . واستدار كارلوهيليا وهو يقول لدى فوسكا « ربما لأنني أكتب بيدى اليسرى » فصاح به دى فسكا « لا يمكن أن تكون انت أشول أيضا . كفاك انك أحول » . وصاح الحاكم العام ونخب صحة هملر » .

كان كارلوهيليا قد قابل هملر فى صباح ذلك اليوم وأمضى معه أربع ساعات وكان فخورا جدا بذلك وهو يصيح قائلا « كنت أعتقد دائما أن هملر يمسك المسدس فى يد والسوط فى اليد الأخرى ولكننى أدركت الآن انه رجل مثقف ورقيق الشعور » ثم استدار الى وقال « مازلت لا أصدق انك لم تتعرف على هملر ظهر اليوم ياماالابارته » .

.. كنت قد عدت الى الفندق ظهر اليوم فرأيت ضابطا المانيا يدخل المصعد ويغلقه خلفه استعدادا للصعود فجريت مخترقا صفا من الضباط الواقفين حول المصعد ودخلت مغلقا الباب خلفى بسرعة ثم ضغطت على زر الدور الثالث فتحرك المصعد لأعلى . ولاحظت أن الضابط الألمانى الواقف معى قد التجأ الى ركن المصعد ورفع يديه أمام وجهه كأنه مستعد للدفاع عن نفسه وكانت عيناه تبرقان كعينى السمكة خلف زجاج نظارته السميك . ونظرت الى الخارج فلاحظت أن الضباط الذين كانوا بالدور الأرضى يصعدون السلم جريا محاولين اللحاق بنا . ثم وقف المصعد فى الدور الثالث فخرجت منه وذهبت الى غرفتى . وبعد دقائق جاءنى صاحب الفندق ليخبرنى أن هملر قد أمر بنقلى الى غرفة بالدور الأرضى ووضع أحد رجال الجستابو معى فى الغرفة .

وصــاح الحاكم العــام « نخب المصعد » وصاح دى فوسكا بصوت عال « تريد بعض الكافيار ــ اليس عندكم كافيار ؟ » ثم دخل رئيس حرس القصر ليعلن حضــور الجنرال ديتل قــائد القوات الألمــانية فى الجبهة الشمالية ..

دخــل الجنرال وحاشــيته على أيديهم وركبهم ينبحــون كالكلاب وما أن وصــلوا الى المــائدة حتى قفز الجنرال واقفــا وهو يترنح على ساقيه ويتناول كأســا من الخمر وصاح « صحة وعافية » وبدأنا مرة أخرى فى شرب الخمر وتبادل الأنخاب .

ولاحظت فجأة الأمير فردريك وندشجريش بين الضــباط المرافقين للجنرال ديتل . كان قد زاد سنوات كثيرة فى مظهره مع انه كان مازال دون الثلاثين . أما وجهه فقد تشقق بالتجعيدات وصار لونه أصفر باهتا كالشــمع ــ كلون جثث الموتى ــ كلون أولئك الذين يعيشــون فى المناطق القطبية خلال أشهر الصيف .. خلال ذلك النهار الواحد الذى يستمر لعدة شهور . ناديته باسم التدليل الذى عرف به فى ايطاليا « فريكى » فاستدار ينظر الى بعينين خاليتين من التعبير أو المعنى كعينى حيوان مفقود . فتذكرت تلك القصص التى سمعتها عن الضــباط الألمــان الذين انتــابهم الذهول فى لابلاند فانتحر الكثيرون منهم بينما جن الآخرون .

ذهبت الى فريكى وقــدمت نفسى اليه فعرفنى وســألنى « هل رأيت أخى هوجو قبل سفرك من ايطاليا ؟ » وكان أخوه هوجو قد قتل قبل ذلك بأعوام حينما أسقطت طائرته قرب الاسكندرية . قلت له « نعم ــ رأيته فى بار اكسلسيور » فقال لى « تصــور . اننى أتخيل فى بعض الأحيان أنه مات » . فقلت له « ولكنــه لم يمت . لقد رأيته منذ مدة قصيرة فى روما » فقال لى وهو ينظر الى بعيونه الفارغة « وحتى اذا كان قد مات . ان هــذا لا يهم . ان الموت غير ضار هل تعتقد أن الموت ممنوع ؟ .. ان الانتحارات

قد زادت بسرعة هائلة بين الضباط والجنود .. انها تلك الشمس الدائمة التى تحرمنا من الظلام .. لقد حضر هملر بنفسه للبحث عن حل لهذه المشكلة .. أترى يصدر أمرا بالقبض على كل منتحر أو يأمر بدفنه بعد ربط يديه خلف ظهره ؟ .. لقد أعدموا اليوم ضابطين لأنهما حاولا الانتحار . ان هملر يعلم أن الموت ليس بضار » .

وعلا صوت بقية الحاضرين وهم يمثلون غارة جوية فيقلد الجنرال ديتل صوت طائرة منقضة ويصيح قائد الطيران مقلدا صوت القنبلة ثم يقلد الباقون صياح الأطفال والنساء وأصوات انهيار المنازل . ودخل ضابط فى الغرفة ليخبر الجنرال ديتل أن هملر يستحم فى حمام البخار فدعانا الجنرال ديتل الى منزله بالمعسكر لنشرب كأسا حتى ينتهى هملر من حمامه . وبينما يقلد الحاضرون مصارعى الثيران انسحب ديتل الى غرفة مكتبه بعد أن دعانى لمرافقته . وجلس قائد قوات ألمانيا فىالجبهة الشمالية على كرسى كبير وألقى برأسه الى الخلف وأغمض عينيه .. وكان وجهه مليئا بالتعب والعناء والحزن ..

لقد اتخذ القائد الألمانى مكان القط فى امتحان القطط ..

- ٢ -

قمت بجولة فى لابلاند ووصلت حتى بحيرة اينارى فى أقصى الشمال . قابلت كثيرا من الجنود والضباط الألمان الذين كانوا يعسكرون هناك ورأيت فى عيون كل منهم تلك النظرة الخاوية الخائفة التى سبق أن رأيتها فى عيون غزلان الرنة القطبية حينما

تشم رائحـة الذئـاب فى الهواء .. نظرة الحيوان الفزع الذى لا يعرف من أين يأتيه الخطر ولا يعرف الى أين يهرب ..

ذهبت الى فندق القرية الوحيدة اطلب فراشا . قال لى صاحبه « أتسألنى عن فراش ؟ لقد احتـل الألمـان كل فراش بالقرية فلم تكفهم فبدأوا يتنـاوبون النوم عليها . ليس عنـدى فراش واحد خال الا فراش الجنرال فون هونرت ولو كان مساعده غير نائم بالغرفة لأعطيته لك .. وعلى كل حال ربما يخرج مساعد الجنرل بعد قليل وأنا أقترح عليك أن تذهب للتسلى بصيد سمك السالمون لمدة سـاعة أو اثنتين ثم تعود » قلت له « اسـمع . انا متعب جدا واريد أن أنام . ولسـت أريد أن أصيد سـمك السالمون لا الآن ولا فى أى يوم آخر » فقال لى صاحب الفندق « ان الضباط الألمـان يقضـون وقتهم فى صيد السـمك بطريقة جديدة . انهم يلقون القنابل اليدوية فى أماكن تجمع السـالمون .. ولكن السالمون غير راض عن هـذه الطريقة فقد بدأ يرحل هاربا الى المياه الروسية » .

قلت له « الا تخشـون أن لا يعود السـالمون من الميـاه الروسية وصيده هو عماد اقتصادكم ؟ » فأجابنى قائلا « بل سيعود كما عاد من قبل بعد الحرب العالمية الأولى . ان السـالمون ينتصر دائما على الغزاة ويعود دائما .. ولكن نرجو أن لا يعود من روسيا وقد اعتنق المذهب الشيوعى » .

وعدت الح على صاحب الفندق أن يجد لى فراشا فقال « سأذهب وأسأل مساعد الجنرال فون هونرت اذا كان يسمح لك بالنوم فى فراش الجنرال » قلت له « دع المسألة لى . لا يجب أن تسأل الألمـان أى شىء . كل ما يجب أن تفعله هو أن تستعمل

الوقاحة معهم » وذهبت الى غرفة الجنرال وبدات أخلع ملابسي ورفع مساعد الجنرال رأسه وقال لى « ان اثنان يزحمان غرفة واحدة » قلت له « من الممكن أن تزدحم أكثر من ذلك » قال « لماذا لا تخرج للتمشية لبعض الوقت حتى أنام ثم تعود لتنام فى الغرفة وحدك ؟ » قلت له « انها فكرة جميلة جدا . سأخرج للتمشية غدا صباحا » .

وأيقظنى فى منتصف الليل صوت كأنه صادر عن الآلاف من الصاجات الخشبية التى تستعملها الراقصات الأسبانيات فيتهيأ لى أننى قد بدات أخرف وأيقظت بينداش ـ مساعد الجنرال فون هونرت ـ لأسأله عما اذا كان يسمع ذلك الصوت . فضحك وقال « ان هذا صوت قطعان غزلان الرنة القطبية وهى تجرى فان حوافرها الخلفية ترتطم بعضها ببعض » وفتحت النافذة لأشاهد قطيع الغزلان وهو يجرى تحت شمس منتصف الليل القطبية .

وفى الصباح أخذنى بينداش مساعد الجنرال ـ الى مقبرة الغزلان خارج القرية حيث كان صيادوا الرنة على مر السنين يلقون بعظام الغزلان التى يصيدونها . وكان ذلك الجزء من الغابة مغطى بأكوام عالية من الجماجم ذات القرون الطويلة المتشابكة والعظام البيضاء الرقيقة .

وقال لى بينداش « ان الفنلنديين يعتمدون على الغزلان كمصدر للحوم كما يأخذون جلودها لصناعة الأحذية والمعاطف والقفازات . لقد أمر الجنرال فون هونرت بصنع كراسى له مكسوة بجلد الغزلان » .

فقلت له « ولمـاذا لا يعملها مكسوة بجلد الانسان ؟ .. فى قلعة كونفرسانو بمدينة أيوليا الايطاليا توجو « كراسى » مغطاه بجلد الانسان صنعها الكونت كونفرسانو فى القرن السابع عشر من جلود أعدائه من رجـال الدين والنبـلاء واللصـوص . واحد هذه الكراسى مكسو بجلد احدى الراهبات .. ويمكنك أن ترى بوضوح حلمتى ثدييها المتآكلتين من كثرة الاستعمال » .

وضحك بينداش وهو يقول « من كثرة الاستعمال ؟ » قلت له « ان جلوس مئات من الناس على هـذا الكرسى خـلال ثلاثة قرون لجدير بأن يبلى حلمتى ثديى أيـة امرأة حتى ولو كانت راهبـة » .

فصمت بينداش قليلا ثم قال « أتعرف ؟ لقد كان بامكاننا أن نكسـو مئات الآلاف من الكراسى بجلد اليهود الذين قتلوا فى هـذه الحرب .. غير ان جلودهم لا قيمة لها حتى ككساء للكراسى » .

الجـــزء الســـادس

الذئـــــاب

- ١ -

توجهت الى محطة روما بمجرد اطلاق سراحى من سجن ريجينا كويلى لأسافر الى نابولى . كان ذلك فى شهر أغسطس سنة ١٩٤٣ وكان حكم موسوليني قد انتهى معه التحالف بين المانيا وايطاليا . وكنت عائدا من الحرب والقتل والتيفود والجوع وكنت أريد الابتعاد بقدر الامكان عن زنزانة السجن القذرة المعتمة المليئة بالحشرات وكنت أريد أن أعود الى منزلى بجزيرة كابرى .

كانت تلك آخر مراحل تلك الرحلة القاسية التى دامت اربع سنوات والتى خضت فيها ميادين الحرب بين الدموع والدم والجوع بين القرى المحترقة والمدن المحطمة والجثث العفنة .. كنت متعبا ومريضا ومليئا بالمرارة وانا افكر فى تلك السنين التى

عشتها أجوب أوربا بينما السجن ينتظرنى كلما عدت الى وطنى.. ثم ركبت القطار الذى كان ممتلئا باللاجئين والهاربين من الجيش.. أولئك الهاربين من الخوف والجوع والحرب .. وهم لا يعرفون الى أين يذهبون ..

كان الحر شديدا والقطار مزدحما بمئات الأشخاص الذين يتصببون عرقا وهم يضحكون بصوت مرتفع ويغنون بصوت مرتفع ويصرخون بمرح مصطنع وعصبية ظاهرة . ومن وقت لآخر كان القطار يقف فجأة ويقفز منه الركاب لينبطحوا على الأرض كلما مرت الطائرات المغيرة فوقنا .. ثم يعوددون للقطار وهم يتصايحون ويتسامرون يتضاحكون بصوت عال بينما يستأنف القطار سيره البطىء بين المدن المتهدمة .

سألنى جندى كان يقف بجوارى « من أين أتيت ؟ » فأجبته « من الجبهة » فصاح وهو يرفع صوته ليسمعه الباقون « من أى جهة ؟ لم تعد هناك جبهات ولم يعد هناك موسولينى ولم يعد هناك أى شىء » فقلت له « اننى عائد من جبهة القتال الوحيدة الباقية .. من السجن » فنظر الى الجندى قليلا ثم قال بصوت مرتفع « أى سجن هذا ؟ لم تعد هناك سجون ولا رجال بوليس ولم تعد هناك ايطاليا أيضا ـ لقد خسرنا الحرب ولم يعد لدينا شىء » .

ثم وقف القطار بين أكوام الحطام ونزلنا فى نابولى .

سرت بين أطلال المنازل ووقع أقدامى يفزع أسراب الذباب فتطير لتعود الى النزول على اشلاء الجثث المتناثرة .. بينما الأطفال والرجال والنساء جوعى وفى ملابس ممزقة ـ يرفعون الأنقاض بحثا عن أقاربهم وممتلكاتهم .. ثم وصلت الى الميناء

ووقفت انظر الى البحر أبكى .. ان البحر ـ ذلك البحر الأزرق الدافىء يرقد عند أقدام نابولى ـ هو رمز الحريـة عندى ... طالمـا حلمت به وانا فى زنزانتى بالسجن أو فى جبهات القتال بينما يدوى الرصاص من حولى .. ذلك البحر ـ والحرية ـ مترادفان حرمت منهما مدة طويلة .. وقفت انظر الى البحر وانا أبكى وأخاف ان أقترب منه خطوة أخرى فقد يختفى من امامى كما كان يختفى من خيالى كلما حاولت الاقتراب منه خلال تلك الأعوام الطويلة ..

ونبهنى طفل صغير الى الغارة التى كانت قد بدأت .. ثم وجدت نفسى فى وسط عدد كبير من الناس المتدافعين فانسقت فى تيارهم حتى وجدت نفسى داخل احد الكهوف المليئة بالناس ممزقى الثياب قـذرى الوجوه ناتئى العظـام وهم يتضـاحكون ويغنون ويتكلمون بصوت عال كأنهم فى سوق . وكان هنـاك رجل يبيع شوربة الخضار وآخر ينادى « المـاء العذب بليرتين الكوب » .

وكان الصمت يستتب فى الكهف كلما صفرت قنبلة فى الهواء بالقرب منا وما تكاد القنبلة تنفجر حتى بدأ الرجـال فى التكهن بالمنطقة التى أصابتها بينما تعدد النسوة أسماء أقاربهن وأصدقائهن الذين يقيمون فى تلك المناطق .. ثم شرعت النساء فى الصـلاة والترتيـل وهن يصحن بأسـماء أزواجهن وأولادهن المفقودين فى ميادين القتال .. ثم جاءت امرأة آلام المخـاض .. وتطوعت كل النساء لمساعدتها وعادت أصـوات الضحك والتفاؤل تملأ الكهف وحينما ولدت المرأة طفلها صاحت النسوة « فلتطلقى عليه اسـم جنارو « » فلتطلقى عليه اسم بنفنوتو » « فلتطلقى عليـه اسـم باولو » ..

ثم صاح الأطفـال عند مدخـل الكهف يعلنون عن نهايـة الغارة . خرجنا الى الطريق وعدت الى الميناء لأسأل عن السفينة

الصغيرة التى تنقل الناس بين نابولى وكابرى فقيل لى انها ربما تأتى فى المساء . ثم عدت أسير بين أطلال المدينة التى هجرها الأغنياءوالنبلاء الى ضياعهم بالريف تاركين العمال والفقراء هدفا للطائرات المغيرة .. ولاحظت بعض رجال البوليس يلصقون شعارات الحكومة الجديدة على بقايا الحوائط ويغطون صور موسولينى باعلانات كتب عليها « يحيا الملك أمبرتو » و « يحيا الجنرال بادوليو » .. كان هذا كل ما تفعله الحكومة الجديدة لنابولى المحطمة ..

ودخلت فى بار صغير فوجدت صاحبه يقف أمام الرفوف الخالية ينش الذباب . سألته « هل عندك ما يشرب ؟ » قال « لم يعد عندنا شىء » . قلت له « أعطنى بعض الماء » قال « حتى الماء .. لقد أصبح شحيحا ولا يعثر عليه » قلت له « اذن سأنتظر هنا حتى نهاية الحرب لأشرب بعض الماء » وجلست أمام احدى الموائد . فحضر الرجل وفى يده زجاجة بها كمية صغيرة من الماء فشربتها ثم سألته « ولماذا تبقى البار مفتوحا ما دام ليس عندك ما تبيعه ؟ » فأجابنى الرجل « اننى لا أترك مكانى هذا أبدا . وانه كل ما أملك وطالما حييت فسأبقى هنا . لن تفزعنى الطائرات والغارات . ان كل شىء سينتهى الى خير لأن نابولى لن تموت أبدا » ثم رفع الزجاجة من أمامى وعاد الى مكانه أمام الرفوف الخالية وهو ينش الذباب ويلعنه . قلت له « ان وزارة الصحة قد عملت مشروعات لمحاربة الذباب حتى انك لا تجد ذبابة واحدة فى ميلانو أو فلورنسه أو تورينو أوروما » فأجاب « وهناك ايضا فى نابولى — لقد أعلنا الحرب على الذباب منذ ثلاث سنوات » فقلت له « ولكننى أجد نابولى مليئة به » .

فقال « لقد خسرنا هذه الحرب أيضا .. وانتصر الذباب » .

« تمت »

رقم الايداع ١٩٩٥/٣٠٦٣

I.S.B.N. 977 — 01 — 4312 — X الترقيم الدولى

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٥٠ قرشــا

مطابع الهيئة المصرية العامة ل...